المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

التوجيه البلاغي تأصيلا وتطبيقا
"السنة النبوية أنموذجا"

Rhetorical Guidance in Origin and Application

"The Prophet's Sunnah as a Model"

بقلم الدكتورة

شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

العدد الأول (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

التوجيه البلاغي تأصيلا وتطبيقا "السنة النبوية أنموذجا"

شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

قسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: shaimaaTawfik2573.el@azhar.edu.eg

الملخص

التوجيه من المصطلحات البينية التي وجد في بيئات علمية مختلفة كبيئة اللغويين، والمفسرين، والأصوليين، والنحويين، والبلاغيين، وهو في الغالب يُعنى بالمعاني فيؤول مشكلها، ويفض اشتباكها.

إن احتمالية الأسلوب لمعان متعددة متباينة دليل ثرائه وجودته، ووضوح المعاني وغموضها دافع إلى النظر في الوجوه التي يتحقق بها البيان والإبهام، فقد يكون المعنى في باطن اللفظ، أو قد يفهم من اللفظ المعنى وضده، واحتمال دلالة اللفظ المعنى وضده من الظرافة والغرابة، وقد ورد هذا كثيرا في الأحاديث النبوية، ومما هو معلوم أن المقصد الأسمى من تبليغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو البيان والتبيين، وكون الكلام يحتمل الضدية مما قد يلبس على السامع ويعمّي عليه؛ لذا جاءت فكرة البحث الموسومة بـــ "التوجيه البلاغي تأصيلا وتطبيقا. السنة النبوية أنموذجا" تحريرا للمصطلح، وتقريرا لشواهده، ومثاقفة لأهل العلم، ورصدا لحركة العقل المتأمل في قضايا اللغة المشكلة دون تعصب لقائل، أو الطعن على فاضل، كما تناول البحث طرفا من أحاديث رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم– بالتحليل تطبيقا على واقع السنة المطهرة تطبيقا عمليا؛ لمعرفة إذا ما كان تعميم الحكم وإطلاقه على وجود التوجيه كثيرا في الأحاديث النبوية حقيقة أم سبيله التوسع في اللغة.

الكلمات المفتاحية: أنموذجا، البلاغي، تأصيلا، تطبيقا، التوجيه، السنة النبوية.

Rhetorical Guidance in Origin and Application "The Prophet's Sunnah as a Model"

Shaima Abdel Rahim Tawfiq Muhammad
Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: shaimaaTawfik2573.el@azhar.edu.eg

Abstract

Guidance is one of the interstitial terms found in different scientific environments, such as that of linguists, commentators, fundamentalists, grammarians, and rhetoricians.

The possibility of the style for multiple meanings differing in evidence of its richness and quality, and the clarity and ambiguity of the meanings motivate us to look at the faces through which the statement and the ambiguity are achieved. This is a lot in the hadiths of the Prophet, and what is known is that the ultimate purpose of the message of the Messenger of God, may God's prayers and peace be upon him, is clarification and clarification, and the fact that speech bears the opposite of what may confuse the listener and blind him; Therefore, the idea of the research was marked by "rhetorical guidance in origination and application" of the Prophet's Sunnah as a model, in order to edit the term, report on its evidence, educate the people of knowledge, and monitor the movement of the mind reflecting on problematic language issues without intolerance to a speaker, or defamation of a virtuous person. The research also dealt with a part of the hadiths of the Messenger God - may God Almighty bless him and grant him peace - by analyzing and applying the reality of the purified Sunnah in a practical application, to see if the generalization of the ruling and its application to the presence of guidance a lot in the hadiths of the Prophet is true or is it a way to expand the language.

Keywords: A model - rhetoric - rooting - application - guidance - Sunnah - the Prophet.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلال وجهه وكماله وصفاته ونعمائه، حمدا لا ينبغي إلّا له وحده لا شريك له، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، حمدا لا يبلى جديده ولا يحصى عديده، حمدًا يوافي نعمه، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله، وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ،،،،،

فإن التبيين عن المقاصد والإفهام الغاية التي من أجلها أرسل المرسلون، ونطق المتكلمون، وحبر الكُتَّاب مسطوراتهم، ووشى الشعراء ألفاظهم، وقد عظم الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأمر بطاعته، وجعل طاعته صلى الله عليه وسلم طاعة له تعالى جدّه فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (النساء:٨٠)، وأنزل إليه تعالى الذكر تبيانا لكل شيء، واضح الدلالة مفصلا، وهدى يهدي الناس، ومنهاجا مستقيما يخرجهم من ظلمات الجهل والتخبط إلى نور اليقين والعلم؛ ولذلك كان نطقه صلى الله عليه وسلم وحيا من الله تعالى يسمعه الناس فيفهمونه، ويحسنون تلقيه على اختلاف مستويات دلالته وضوحا وخفاء وقربا وبعدا، وقد يمتحن الله – عز وجل– عباده بأن يبلغ أفهامهم على بعض المشقة، بأن يكون المعنى في باطن اللفظ، أو قد يفهم من اللفظ المعنى وضده، وقد ذكر "ابن الأثير" ت٦٣٧هـ أن احتمال دلالة اللفظ على المعنى وضده من الظرافة والغرابة، وأطلق الحكم بأنه كثير ما يرد في الأحاديث النبوية[١]،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير، تح: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ٦٤/١، نهضة مصر.د.ت.

ومما هو معلوم أن المقصد الأسمى من تبليغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو البيان والتبيين، وكون الكلام يحتمل الضدية مما قد يلبس على السامع ويعمّي عليه، وما ذكره "ابن الأثير" عنون له العلماء بـ"الإبهام" كـ"ابن أبي الإصبع" ت٦٥٤هـ، و"النويري" ت ٧٣٣هـ، و"ابن معصوم" ت ١١١٩هـ، وسماه "السكاكي" ت٦٢٦هـ بـ"التوجيه" وتبعه شراح التلخيص و"ابن حجة الحموي ت ٨٣٧هـ، ومن هنا جاءت فكرة البحث الموسومة بـ "التوجيه البلاغي تأصيلا وتطبيقا. السنة النبوية أنموذجا" تحريرا للمصطلح، وتقريرا لشواهده، ومثاقفة لأهل العلم، ورصدا لحركة العقل المتأمل في قضايا اللغة المشكلة دون تعصب لقائل، أو الطعن على فاضل، كما تناول البحث طرفا من أحاديث رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم– بالتحليل محاولة لفهم رؤية عالم جليل كـ"ابن الأثير" وتطبيقها على واقع السنة المطهرة تطبيقا عمليا؛ لمعرفة إذا ما كان تعميم الحكم وإطلاقه على وجود التوجيه كثيرا في الأحاديث النبوية حقيقة أم سبيله التوسع في اللغة.

أهمية البحث: تهدف الدراسة إلى بيان بلاغة أسلوب جامع للمعنى وضده، تقرر وروده في سنة رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم– كثيرا، وقصده "المتنبي" أيضا في شعره كثيرا خاصة "كافورياته"، وأشكل على بعض العلماء فسموه بـ"الإبهام"، والإبهام: إلغاز وتعمية وتورية، وتدافع بين بعض المعاني وبعض، وهو مما يزيل الكلام عن حد الاعتدال والاستواء، ويناقض المقصد، فتعين الكشف عن وجه الإغماض، وبيان سبب اختلاف التسمية بين العلماء، ومناقشة تعريف المصطلح وتطوره عند القدماء والمحدثين.

خطة البحث: اقتضت خطة البحث أن يقسم إلى: ملخص، ومقدمة، وتمهيد، وفصلين: الفصل الأول: التوجيه بين علماء الأدب والبلاغة، والفصل الثاني: نماذج من السنة النبوية المشرفة، ثم الخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

الدراسات السابقة: ذُكر "التوجيه" في مصادر بلاغية وأدبية كثيرة بعضها نقل عن بعض، وبعضها أبدع وابتكر كـ"ابن الأثير" في مثله السائر، وجاء المصطلح البديعي ضمنا في الكتب التي تناولت البديع بالتأليف، ولكنه لم يُفرد ببحث خاص به ودراسة مستقلة على حسب ما توصل إليه البحث في المظان المختلفة وطالع.

منهج البحث: اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي من خلال تتبع مصطلح الدراسة تتبعا زمنيا في مظانه في المصادر المختلفة وترتيبه ترتيبا زمنيا، والمنهج الوصفي الذي يصف الظاهرة البلاغية دون إغراق في التأويل أو تمحل في التنزيل، ويقدم الإيضاحات والشروح من خلال الملاحظة، والاستقراء، والتأمل، والتدبر، والتذوق مع تجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، وتحليل نصوص الحديث الشريف تحليلا بلاغيا، ثم التأليف والتركيب واستقراء جميعها؛ للوصول إلى نتائج كلية.

أسئلة البحث:

يجيب البحث عن سؤالات يثيرها النظر في أقوال العلماء المختلفة منها:

س- لماذا اختير التوجيه دون غيره من فنون البديع؟

س- ما العلاقة بين التوجيه والإبهام ؟ وما علاقة التوجيه بالأضداد؟

س- ما المقامات التي يرد المعنى وضده فيها؟ هل تحتمل مقامات القول المختلفة أن يرد المعنى وضده في سياقها؟

س- ما الفائدة من الجمع بين المعنى وضده في سياق واحد؟

س- هل يقصد المتكلم التعمية على المخاطب وإفهامه خلاف ما قصده؟

س- هل يوصف الكلام بالكذب لأن المتكلم قصد إفهام السامع خلاف الواقع؟

س- هل يدل احتمالية القول للمعنى وضده على اقتدار القائل وتمكن بلاغته؟

س- هل عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تحريك العقل وتثوير الفكر لاستنباط المعاني الكامنة في بيانه ؟

س- هل يوجه خطاب التوجيه لفئة معينة من المخاطبين رغم شمولية رسالة نبي الهدى صلى الله عليه وسلم كافة العالمين؟

س- ما الغاية المرجوة من وجود التوجيه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

تمهيد

التوجيه والتعمية والإلغاز

التوجيه لغة: تدور مادة (و ج ه) حول معنيين: الأول: استقبال الشيء بالوجه، والمواجهة، والمقابلة، "الواو والجيم والهاء: أصل واحد يدل على مقابلة لشيء"(١)، وأول كل شيء، والثاني: كون الشيء له وجهان كالكساء الموجه الذي له وجهان مختلفان(٢)، والمعنيان يشكلان المعنى الاصطلاحي للتوجيه، فالتوجيه الاصطلاحي هو: "إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين"(٣) فالوجه الأول: هو المعنى الظاهري الجمهوري المقابل للقارئ، وهو الظاهر للعين، تنتجه القراءة الأولى، والوجه الآخر: مستتر عن الأعين ولكنه موجود، لا يزاحم المعنى الثاني في الظهور، كما أن الكساء ذا الوجهين لا يبدو منه إلا وجه واحد، وهو معنى باطني يفهم من سياق الكلام وحاقه يحتمله المقام، ينتجه السامع ويستنبطه، وهذا المعنى المستنبط يستشف من المعنى اللغوي للتوجيه فالأمر إذا لم يستقم من جهة وُجه له تدبيرا آخر "وأصل هذا في الحجر يوضع في البناء فلا يستقيم، فيقلب على وجه آخر فيستقيم"(٤).

---

(١) مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، مادة (و ج هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر.د.ت.

(٢) ينظر لسان العرب. مادة (و ج هـ).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني، تح: د. عبد القادر حسين، ص٤٢٤، ط١، مكتبة الآداب١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٤) لسان العرب. مادة (و ج هـ).

وقد ورد في المعنى اللغوي أيضا أن الشيء الموجه: هو ما جعل على جهة واحدة لا يختلف[١]، فهل يضاد هذا المعنى التفسير الآخر وهو احتمال وجهين؟ والجواب عن ذلك أن المعنيين غير مرادين معا؛ لاستحالة اجتماع ضدين في معنى واحد في بعض الشواهد، فالكلام بنظمه وسياقه دال على معنى، ويستشف السامع معنى آخر يحتمله المقام، وهو مقصود؛ لعدم وجود قرينة صارفة عن فهم ما لا يراد، وكون الكلام يحتمل وجها آخر يُشكل على السامع، فيحرك عقله، ويشغل فكره مزية توجب الفضل.

واحتمالية الكلام وجهين تجر إلى الحديث عن التعمية والملاحن والإلغاز:

موضوع الكلام الإفهام، وإغلاقه عجز عن الإبانة، وإبهامه بعدم تخليصه مما يوجب الشركة إيهام، ومظنة للخطأ والظن، وافتقار إلى مساءلة المتكلم عن تحديد المقصد، والغلو في إخراج المعاني والتكلف في طلبها يخرجها إلى الانغلاق والإلباس والتعمية، وهذا يناقض القصد من اللغة والبيان. وإذا كان المقصد غير متعين في التوجيه، فهل يكون هذا من تعمية المعنى المقصود فلا يتبين وجهه ولا السبيل إلى إدراكه؟ وهل سلك المتكلم الطريق الأبعد فخدم المعني وتصنع لإيراده، فجعل ظاهر الكلام عجبا لا يمكن وباطنه ممكنا غير عجب؟

التعمية والإلغاز: تجهيل، وتلبيس، وتخليط، وتغطية، وإخفاء، والتواء وإشكال، وميل بالشيء عن وجهه، وتعمية المراد وإضماره على خلاف إظهاره[٢]، وعدم اهتداء إلى المقصد بالتقديم والتأخير دون مقتض، أو فصل

(١) لسان العرب. مادة (و ج هـ).

(٢) ينظر مقاييس اللغة ولسان العرب مادة (ل غ ز).

واعتراض بين أجزاء العبارة وما يرجع إليها، أو فرط الإيجاز بنوعيه القصر والحذف، أو فرط طول العبارة مع كثرة الفصول والاعتراضات مما يعمي عن المقصد الأصلي، أو حذف مفسد للمعنى دون وجود قرينة تدل على المحذوف، أو تدقيق المعاني وتعميتها لضرب من المقاصد دون الإتيان بقرينة، أو عدم وضع الألفاظ مواضعها اللائقة بها، وصرفها عن وجهها[1] بتكلف وتعمل وكدّ، وكثرة الانتقالات بين المعاني دون وجود رابط يربط بينها وجامع يؤلفها، والتواء العبارة حينا، واقتضابها حينا آخر، وقلب الحقائق فلا يستبان ما وجهها مما يعمي على السامع، وهي ضد الإفهام والبيان، وإذا كانت القرينة خفية، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي بعيدة صار الكلام بمنزلة التعمية والإلغاز، يقول "ابن القيم" عن الخطاب الذي يقصد به التعمية على السامع: "إطلاق اللفظ وإرادة خلاف حقيقته وظاهره من غير قرائن تحتف به تبين المعنى المراد"[2]، وإذا كان قصد المتكلم معنى، وقصد إخفاء مقصده عن المخاطب والتعمية بإفهامه خلاف ما قصد بأن خاطبه بما يضاد البيان بألفاظ مجملة تحتمل معان عدة لأغراض ودواع تتعلق بالمتكلم كإلاخفاء على السامع لمصلحة، أو الخوف منه، يكون الكلام

---

(١) ينظر كتاب الصناعتين. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٦١، المكتبة العصرية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم بن محمد بن حسن القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص١٤٧،ط٣، دار الغرب الإسلامي.تونس ١٩٨٦م.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تح: حسين بن عكاشة بن رمضان، ٤٤/١، ط١، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت) ١٤٤٢ هـ – ٢٠٢٠م.

من باب التورية والمعاريض، وهو من خاصة العقل[١] فـ"أحسن التعمية في اللغز ما أسفر بعد الحل عن تورية بديعة في بابها"[٢].

الملاحن: اللحن: الفطنة والفهم، وإضمار المتكلم خلاف ما يظهر إمالة عن الواضح والمفهوم ليسلم، وإحالة الكلام عن جهته بإفهام البعض بالفحوى والإخفاء عن الآخر[٣]؛ لأنه إخراج للكلام تحته معنيين دون وجود قرينة، يختلف عن المشترك، وعن احتمالية الضدين في المفرد، يفهم من المقام ومن حاق القول، يفهمه الفطن ويخفى عن البطئ، وهو ضرب من القول مقصود لذاته نافع في فهم غريب القرآن الكريم والسنة المطهرة، وموئل في مواقف الخوف والتستر والتعمية، ينأى بصاحبه عن الكذب، يقول "ابن دريد" عن سبب تأليف كتابه (الملاحن): "هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المجبَر المضطهَد على اليمين المكره عليها، فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف ما يظهره، ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من جنف الغاشم"[٤]، وهي بذلك تشبه الإشارة والرمز والإيماء إلى مواضع الخفي ليفهم، وضرب مستطرف من القول ولكن لا يستحب الإكثار منه لئلا يفوت الغرض الأصلي من الكلام وهو الفهم والإفهام.

---

(١) ينظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تح: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ٩٤٩/٢، و٢٥٧/١، ط٣، دار عطاءات العلم. الرياض – دار ابن حزم. بيروت١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب.ابن حجة الحموي، تح:عصام شقيو، ٣٦١/٢، دار ومكتبة الهلال. بيروت، دار البحار. بيروت٢٠٠٤م.

(٣) لسان العرب. مادة (ل ح ن)، والملاحن. أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، تح: د. عبد الإله نبهان، ص ٦٣ وما بعدها، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٢م.

(٤) الملاحن ص ٦٣ وما بعدها.

وقد ذكر "النويري"ت٧٣٣هـ أن اللغز اسم عام يدخل تحته أنواع عدة من الطرائق التي قصد قائلها التعمية والتغطية على القارئ ومعناها واحد كالمعاياة، والرمز، والمحاجاة، والإشارة، وأبيات المعانى، والملاحن، والمرموس، والتأويل، والكناية، والتعريض، والتوجيه، والمعمّى[١] وتختلف بحسب اختلاف وجوه اعتبارات المعنى وقصد المتكلم الذي هو مدار الأمر.

وقد ألفت مؤلفات عدة في الأشباه والنظائر في الفقه والنحو، وأفردت للألغاز أبوابا مستقلة مثل: "الإلغاز" لابن قتيبة، و"الطراز في الألغاز" للسيوطي، و"فن الألغاز" لابن نجيم، و"الألغاز الفقهية" للمارودي، و"الألغاز النحوية" للسيوطي، و"الأشباه والنظائر" في النحو، و"بدائع البدائه" لعلي بن ظافر، و"الأضداد" لأبي دؤاد الإيادي، الهدف منها اختبار ما عند المتلقي، ورياضة الذهن، ومران العقل وتقويته، وإظهار المقدرة اللغوية "هذه الأمور تحتاج إلى قوّة ذكاء واحتدام قريحة من الذي يقع منه الرمز، وإلى قوّة حدس من الذي يحاول إدراك المقصد من تلك المعامي"[٢] .

الفرق بين الإيهام والإبهام:

الإيهام: كون المقصود خلاف المفهوم، وأن لا يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، والقصد منه وقوع المخاطَب في الوهم والغلط والتخييل، والسهو والغفلة، والتمويه والإشكال، والظن والتشكيك، دون تقييد

(١) ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، ٣/ ١٦٣، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٣ هـ.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، ٢٥١/٩، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م.

أو زيادة تدفع التوهيم، وأما الإبهام فعدم الإعلام بالتعيين ولو لم يقصد وقوعه في الوهم، فهو أعم.

التوجيه اللغوي:

إن تعدد القراءات القرآنية الكريمة واحدة من أبرز الوجوه التي تتجلى فيها مظاهر التوجيه اللغوي، فعني العلماء بتوجيه القراءات والاحتجاج لها أو بها، واتخذوها دليلا على صحة رأيهم في مسألة ما في معرض التحليل والتعليل والاحتجاج، فتوسل بها الفقيه لبيان حكم شرعي، أو لتعضيد رأيه واستنباطه فيما ذهب إليه، أو لترجيح حكم اختلف فيه، أو الجمع بين حكمين مختلفين، أو لإيضاح حكم يقتضي الظاهر خلافه[١] مستندا على التوجيه اللغوي للقراءة، واعتمدها النحوي في إثبات صحة رأيه، وتلمس البلاغي تنوع المعانى المكنونة في جنباتها ليتلمس الأوجه البلاغية المنبنية على تغايرها.

إن الاختلاف في وجوه القراءات لا تعارض بينها؛ لأنها توجه توجيها جامعا بما لا يضاد الوجه الآخر، وبما لا يختلف مع الشريعة الإسلامية ذات الأصول الواحدة، وأوامره ونواهيه واحدة لا تختلف "على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة، فإنه يتوجه على أنحاء ووجوه مع السلامة من التضاد والتناقض"[٢].

---

(١) ينظر المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة. د.محمد سالم محيسن، ٧٩/١ وما بعدها، ط٢، دار الجيل بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) النشر في القراءات العشر. أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري، تح: علي محمد الضباع، ١/ ٢٨، المكتبة العلمية.د.ت.

الفصل الأول

التوجيه بين علماء اللغة والبلاغة

لم يرد ذكر التوجيه بمعناه الاصطلاحي البديعي في مؤلفات علماء القرون الهجرية الأولى إلى القرن الخامس، ولكن وجدت مؤلفات تبحث في المتشابه والنظائر، وأخرى تحمل اسم "الوجوه والنظائر" كـ"الوجوه والنظائر" لمقاتل بن سليمان البلخي ت(١٥٠) هـ، و"تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة ت (٢٧٦)هـ، و"تحصيل نظائر القرآن" للترمذي ت(٣٢٠)هـ، و"أفراد كلمات القرآن" لابن فارس ت (٣٩٥)هـ، و"الوجوه والنظائر" لأبي هلال العسكري ت(٣٩٥) ه، و"الوجوه والنظائر" للدامغاني ت (٤٧٨) هـ، و"نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" لابن الجوزي ت(٥٩٧) هـ، وهي مؤلفات عنيت بالوجوه المختلفة التي تفصح عنها المفردة القرآنية الواحدة في سياقاتها المختلفة، تدل على استقصاء شامل وإحاطة كلية بمعاني القرآن العظيم، نظر مؤلفوها في وجوه الكلمة الواحدة وتعدد مرادها الذي يختلف باختلاف السياق، فرتبوها ترتيبا هجائيا، وجمعوا كل ما يتشابه معناه في الآي في تبويب واحد كما كان يفعل "ابن فارس" في مقاييسه.

إن البحث في الأوجه والمقاصد التي يحتملها المفرد أو التركيب اللغوي في سياقهما لا يختص بالدرس البلاغي فقط وإنما هو بحث في وجه من وجوه طرائق العربية في الإبانة، ولسان العرب متسع الطرائق كثير

الوجوه كما قال "الشافعي"ت (٢٠٤) هـ -رحمه الله- وخصائص العربية[١] وسيعة لا يستطيع إنسان كائنا ما كان أن يلم بأطرافها وشعبها، ومجملها ومفصلها، وظاهرها وباطنها، ومحكمها ومتشابهها، وشرعتها ومنهاجها، ولطائف معانيها، ومستودع أسرارها، وبرغم كثرة المؤلفات التي تناولت الوجوه في آي الذكر الحكيم فإن التوجيه على اختلاف تسميته -عند بعض العلماء- لم يرد في المصادر البلاغية إلا فنا ضمن فنون البديع ذا شواهد قليلة، فلم تفرد له مؤلفات تضم نماذج من البيان العالي شعرا ونثرا، أو أطروحات علمية تناقش المصطلح وتدعمه بالشواهد نظرا لأهميته التي قررها ابن الأثير ت (٦٣٧) هـ حين ذكر أن "التوجيه" كثر وروده في أحاديث رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – وفي "كافوريات

(١) خصائص العربية كثيرة لا يحيط بها إلا إنسان مُلهَم يُوحَى إليه، لاشتمالها على أحوال وعوارض ومقاييس وتصاريف واشتقاقات مع تقليب حروف الكلم، وتصاريف الإعراب، واستحالته من صورة إلى صورة مما يترتب عليه من اختلاف المعاني لاختلاف طرق الإبانة عنها، والإحالة على الحس والنفس، والاستعمال والإهمال واختلاس الحركات بسبب الاستثقال والخفة، وتبادل الأحكام بين الآخذ والمأخوذ منه، وإيثار التجانس والتشابه، وحمل الفرع على الأصل والعكس، والحمل على النظير والنقيض والإلحاق، وتحصين المعاني وحياطتها، والتدريج في اللغة من شيء إلى غيره وقياسه عليه، والحمل على ماهو أليق بالمعنى، وأوفق بالمراد، وتثوير المعاني، والتصرف في النظم بالتقديم والتأخير والحذف تبعا لدلالة المعاني، واختلاف جهات الكلام ومواقعها، والانتقال من حال إلى حال، وأقسام معنى الكلام، وتعدد وجوه المخاطبات من حيث العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والإفراد والتثنية والجمع، والاتساع وهو مذهب عام في اللغة ضمن تحته جميع أنواع المجاز المقيد بقرينة، والمجاز بالمعنى الأوسع والشامل لكلمة مجاز وهي التعدية والعدول والتصرف والاحتمال، والاكتفاء بالقليل من الكثير (الإيجاز)، والحمل على الآخر بدون اشتراط قرينة. ينظر الخصائص ١/١ وما بعدها

المتنبي"[1]، وهذا مما يثّور فكر المتلقي، ويُشغل خاطره، أكان بيان رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – مبهما يفهمه بعض الناس دون بعض؟ أكل المخاطبين بهذا البيان النبوي سواء في الفهم والتفهم – إذ كانت رسالته – صلى الله تعالى عليه وسلم – عامة، وكانت غايته– صلى الله تعالى عليه وسلم – تعليم الناس جميعا الحق والخير من غير إغفال الخواص؟ أكان خطاب الشريعة يوهم خلاف الإدراك الفطري للغة؟ لذا تتبع البحث المصطلح تتبعا تاريخيا مرجحا أي التسميتين (الإبهام– التوجيه) أرجح بهذا الفن البديعي، ولنبدأ بحجة العربية الإمام "الشافعي" –رحمه الله تعالى–

الشافعي ت (٢٠٤) هـ: إن البيان العالي بيان ثري يحتمل وجوها في توجيه معناه لا يقتصر على معنى واحد في الإفادة، تنبعث عليه أشعة الفكر فيعكس ألوانا مختلفة من الضياء، وكأنه أساليب مختلفة متباينة تتوالد من رحم واحد، وكان هذا المعنى متحققا في تفسير "الشافعي" في باب "البيان الأول"[2]، إذ بين وأوضح ما تكتنفه الآي الكريمة من وجوه قائلا: احتملت كذا واحتملت كذا، وفي كلا الاحتمالين فائدة تتنزل حسب أحوال المخاطَب ودرجات إدراكه، ومقام الخطاب وملابساته، كما أشار إلى اتساع لسان العرب، وكثرة وجوهه، وتكاثر دلالاته، فمن ينكر معرفة هذا أو يخالفه لم يوفق أو يوافق صوابا.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير، تح: د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، ١/٦٤: ٦٥ نهضة مصر.د.ت.

(٢) ينظر الرسالة. محمد بن إدريس الشافعي، تح: أحمد محمد شاكر، ص١٢٥، ط١، مكتبة الصفا١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

ابن طباطبا العلوي ت (٣٢٢) هـ: لم يرد ذكر التوجيه صراحة عند "ابن طباطبا" ولكن حديثه عن "صناعة الشعر" ذكر أن من الشعر أشعار مُحكَمة متقنة ومُموّهة، يقول:"...ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحا"[١]، التمويه هنا ليست صفة نقص وشين بل عذوبة ورشاقة وزين، فالمعاني تتموه: أي تكثر[٢] وتغزر، وتتعدد وتتنوع إلى ما لا نهاية له، وهذا ما جعل المعاني من أغراض الشعراء عند "قدامة بن جعفر" ت(٣٣٧) هـ، كما جعل بعض المحسنات المعنوية (صحة التقسيم، وصحة المقابلة، وصحة التفسير، والتتميم، والمبالغة، والتكافؤ (الطباق)، والالتفات) نعوتا للمعاني الشعرية، والتوجيه والإبهام وجهان من وجوه تموه المعاني وخصوبتها، فالألفاظ قارة في تركيبها، والمعانى تتوالد وتتكاثر على حسب قدرة منشئها على تثوير المعاني في نفس المتلقي.

الرماني ت(٣٨٦) هـ: لم يرد ذكر التوجيه صراحة في التقسيم العشري الذي ارتضاه "الرماني" للبلاغة، ولكن القسمين الأول (الإيجاز) والعاشر (حسن البيان) يكتنفهما حديث عن وضوح المعانى وتمييزها، فأفاض في المبدأ حديثا عن الإيجاز ونوعيه وبلاغته مع حياطة المعنى عن الإخلال والاضطراب، واحتاط في المقطع بما يقوي القسم الأول ويكمله فتحدث عن حسن البيان وهو ما يتحقق به تمييز المعاني، فما ليس ببيان وهو ما لا يتحقق به التمييز فيكون إبهاما وتخليطا.

(١) عيار الشعر. أبي الحسن محمد بن أحمد طباطبا العلوي، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، ص١١، مكتبة الخانجي.د.ت.

(٢) موهت الشيء: طليته بفضة أو ذهب. مقاييس اللغة، ولسان العرب. مادة (م و ه).

افتتح "الرماني"بالإيجاز، وجعل إشباع المعنى وإجاعة اللفظ أفضل الكلام وأعلاه، كما جعله أصلا عاما في بلاغة العربية يندرج تحته كثير من فنون البلاغة التي استحدثها البلاغيون فيما بعد، فإن قيل: إن الإيجاز نواة التوجيه وأصله لم يبعد؛ لاستخدام المبين ألفاظ ووسائل محدودة لمعان غير محدودة مع اختلاف الغرض والداعي، ولقول الرماني:" والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد"(١)، وهذا وثيق الصلة بما ذكره "الجاحظ"، حيث أدار جلّ كتابه "البيان والتبيين" على الإيجاز، وعده أحسن الكلام، وجاءت إشارة "الخطابي" ت(٣٨٨)هـ أن الإيجاز يمكن أن يكون نواة التوجيه ومعدنه، يقول: "وقد يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه.....وفي ذلك تبتير الكلام وإبطال فائدته"(٢) وهذا ما وجد في شواهد التوجيه الذي قصد بها الإشكال الذي يحيل على الإبهام والسخرية بسبب حذف الكلام، وعدم التصريح بالمقصد منه، والاعتياض عنه بفهم السامع.

أبو هلال العسكري ت (٣٩٥) هـ : بنى "أبو هلال" الأصل في الفصاحة والبلاغة على الإبانة عن المعاني والإظهار لها وتمكينها في نفس سامعها، وإفهام المخاطب بقدر طبقته البيانية وطاقته التعبيرية وثقافته اللغوية، ثم ذكر أن الغلو في تدقيق المعاني والتصنع لها تعمية وإلغاز يشين المعانى ويغلقها "وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا، لاينغلق معناه، ولا

(١) النكت في إعجاز القرآن. أبي الحسن علي بن عيسى الرماني مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. أبي الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، الرماني، تح: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، ص٨٠، ط٣، دار المعارف١٩٧٦م.

(٢) بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٣٩

يستبهم مغزاه"[١]، وحسَّن التعمية والإلغاز إذا قُصدا لغرض وكانا لفائدة كاللحون وأبيات المعاني[٢] التي تهتم بالبحث عن الخبيء من المعاني والدفين والمكنوز، ولم يذكر التوجيه جهرة ولكن يمكن حمل التوجيه على الإلغاز إذا كان المبين قَاصدا إياه في كلامه لغرض، وقد أشار كلام العسكري إلى غاية الكلام ومغزاه وهي الفائدة ووضوح المقصد، وبيان المراد للسامع، فليس الإلغاز مباراة في القول واستعراضا بالألفاظ وتكلفا لاجتلابها؛ لبيان قدرة المبين وبراعته، وليس لغوا يترفع عن سماعه ولكنه قصد لحاجة.

أبو بكر الباقلاني ت (٤٠٣) هـ: لم يُذكَر التوجيه ضمن فنون البديع التي نقلها "الباقلاني" عن المتقدمين، ولم يرتض أن يكون لها مدخل في الإعجاز؛ فإذا كان الكلام موضوعا لإبهام الأغراض التي في النفوس، وكان غامضا في الإبانة عن المعنى، مشتبها في إيضاح المطلب، متأبيا على الإفهام، لم يكن مبينا[٣] وهذا هو معنى التوجيه عند بعض المتأخرين.

ابن رشيق ت(٤٥٦)هـ: ذكر أن "ابن رشيق" أن المولدين تفننوا في إيراد وجوه البديع المختلفة التي قل عناية المتقدمين بها وزادوا فيها، وإن كان المتقدمون مهدوا سبيله، وذللوا طريقه[٤]، وأن "بشار بن برد" (أبا

(١) كتاب الصناعتين. أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص٦٧، المكتبة العصرية١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) السابق نفسه ص٢٩

(٣) استشففت هذا المعنى من بيان "الباقلاني" في باب (في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن). إعجاز القرآن. أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تح: السيد أحمد صقر، ص١١٧، ط٧، دار المعارف ٢٠١٠م.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٣١/١، ١٩٨، دار الجيل.د.ت.

المحدثين) أول من فتق البديع من المحدثين مع قوة طبع، وبرغم ذلك لم يذكر الأوائل شعره في التوجيه، ولم يذكر "ابن رشيق" التوجيه ضمن الفنون البديعية التي أوردها في كتابه، ولكنه اعتبره غرضا فذكره ضمن أغراض الشعر وصنوفه وعقد له بابا سماه (ما أشكل من المدح والهجاء)[١] وهو من الأضداد، وليس من باب المناقضة بل هو اتساع في المعنى والتأويل، وهو صادق على الأمثلة التي وردت في التوجيه، وعلى ذلك فما أشكل من المدح والهجاء غرضا واحدا من أغراض الشعر، أما التوجيه فيتسع للمدح والهجاء وغيره فهو أعم.

وعقد بابا للبيان[٢] -متتبعا خطى "الرماني" مصرحا بذلك- وعرفه بكونه كشفا عن المعاني دون إلباس وعدم اهتداء، فما لا يتحقق فيه ذلك الكشف يكون ملبسا مبهما، ويصدق أن يسمى توجيها على رأي بعض العلماء.

ونقل مقولات كثيرة لأهل العلم في تعريف البلاغة -اقتداء بـ"الجاحظ"- منها تعريف لم يذكر قائله، فقال:"البلاغة أن تُفهم المخاطب بقدر فهمه، من غير تعب عليك"[٣] فربط البلاغة بطبقة المخاطب في الفهم، وهذا التعريف هو مقتضى الحال في التوجيه، وخروج بالكلام لا على مقتضى الظاهر بتجهيل السامع، وإخفاء الظاهر، وإظهار الخفي، وتقريب البعيد، وتبعيد القريب، أي القدرة على الكلام والاختيار[٤]، كما عقد بابا

(١) العمدة ٢/ ١٨٦

(٢) السابق نفسه ١/٢٥٤.

(٣) السابق نفسه ١/٢٤٤

(٤) ينظر السابق نفسه ١/٢٤٥

للاتساع[١]، وهو باب وسيع للتأويل، والتأويل في التوجيه مرتبط بسياق استعمالي ملحوظ فيه حال المخاطب، وصنعة المتكلم وقوة طبعه، فيورد كلاما محتملا أكثر من معنى.

ابن سنان الخفاجي ت(٤٦٦)هـ: اللغة وسيلة اتصالية وتعبيرية، واللغة العربية تعرب عما في نفس قائلها إيضاحا وتبيانا، وكشفا وتفسيرا، وهذا هو معيار الكلام المحمود عند "ابن سنان"، الدلالة على المعاني دلالة ظاهرة دون خفاء واستغلاق[٢]، ومن المواضع التي يتبدى فيها الإيضاح والإبهام أحدها: الإيجاز، بالدلالة على الكثير من المعاني دلالة واضحة بألفاظ قليلة، فالإفراط في إيجاز الكلام مؤداه إلى الإخلال والإلباس والتعمية والإبهام، وهو مذموم، ويمكن القول كما سبق ذكره إن الإيجاز أصل في التوجيه لقوله: "... المختار في الفصاحة والدال على البلاغة هو أن يكون المعنى مساويا للفظ أو زائدا عليه، وأعنى بقولي زائدا عليه: أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لا أن تكون الألفاظ لفرط إيجازها قد ألبست المعنى وأغمضته"[٣] فالإيجاز اتساع في المعنى؛ حيث يتسع السياق لوجوه عدة للمعنى الواحد يحتملها المقام دون تعارض بينها وهذا هو مضمون التوجيه عند البعض، والآخر: إغلاق النظم بإشكاله، وخفاء المعنى وبُعده إذا لم يقصد لذلك، فما وضع من الكلام وقصد فيه إلى الإلغاز والتعمية والإغماض وامتحان الأفهام فهو على خلاف الأصل وهو

(١) العمدة ٩٣/٢

(٢) ينظر سر الفصاحة. أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، تح: د.النبوي شعلان، ص٣٠٨، ط١، دار قباء ٢٠٠٣م.

(٣) السابق نفسه ص٣٠٩

الإيضاح، وحسّن منه ما كان ظاهره يدل على التناقض[١]، ويحتاج إلى التفكير في مغزاه والسؤال عنه كأبيات المعاني من شعر "المتنبي"[٢].

عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧٤) هـ: لم يرد ذكر للتوجيه نصا عند "عبد القاهر"، ولكن يمكن حمل التوجيه على المعنى العام للمجاز عنده، وهو الاتساع، يقول:" صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ، حتى يكون هناك اتساع ومجاز، وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة، ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخر"[٣] هي الوجه الآخر للدلالة المعنوية للكلام، فظاهر الكلام يفيد معنى، ويستشف المتلقي من وراء المعنى الظاهر معنى باطنا، هو ما سماه بـ(معنى المعنى)، وهو مناط الحسن، وعدّ منه "التمثيل"، و"الاستعارة"، و"الكناية"، ويمكن توسيع دائرة المجاز لتخرج من ضيق الإطار الذي حصره العلماء في فنون علم البيان عند المتأخرين إلى ما يُفهم من الخطاب (المعنى المقدر) كما سماه "ابن الأثير"[٤]، وهو موضع للترجيح بين وجهين من المعنى دل عليه تركيب واحد يتأوله القارئ، عدل به منشئ الخطاب عن أصل المعنى، ولوّنه فأكسبه صبغة نفسية تتلائم مع غرضه ومقتضى حاله، وبهذا يتسع المجاز ليشمل فنونا بلاغية عدة يدخل التوجيه ضمنها باعتبار معنى الاتساع، ليشمل احتمالية الضد مطلقا، ولا يقتصر على احتمالية المدح والهجاء فقط..هذا واحتمالية الكلام لوجه آخر غير الظاهر مناط للمزية والحسن عند "عبد القاهر"، يقول: "..إنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر"[٥] .

---

(١) ينظر سر الفصاحة. أبي محمد عبد الله ، ص ٣٣٧

(٢) هذا ما ذكره "ابن الأثير" فيما بعد عن "المتنبي".

(٣) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تح: محمود شاكر، ص٢٦٥، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٤) المثل السائر ٦١/١

(٥) دلائل الإعجاز. ص٢٨٦

السكاكي ت (٦٢٦)هـ : "مفتاح العلوم" هو أول الكتب البلاغية التي ذكر فيها فن التوجيه البلاغي، جعله "السكاكي" من البديع المعنوي، وعرفه بقوله: "إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين كقول من قال للأعور: ليت عينيه سواء، وللمتشابهات من القرآن مدخل في هذا النوع باعتبار"(١) احتمالية متشابهه لوجهين مختلفين أو لوجوه كثيرة، ظنية الدلالة، وعدم نصها على ظاهر المراد، وغياب الدليل على المراد أو المرجح له(٢)، وتأويله محكوم بصرفه عن ظاهره وبيانه بالمحكم "المحكم أصل للمتشابه يقدح به فيظهر مكنونه، ويستثير دفينه"(٣).

يفهم من كلام "السكاكي" أن التوجيه نوعان، فمنه ما يكون في كلام البشر وهو ما يحتمل معنيين مختلفيين على السواء: يكون أحدهما مدحا والآخر ذما (احتمال الضدين) كما في المثال الذي مثل به، أو يكون مراد المتكلم التعمية على السامع والإلغاز والإيهام(٤) وإخفاء المعنى؛ لغرض في نفسه، والآخر: التوجيه في القرآن العظيم فله خصوصية (باعتبار)، فلا

(١) مفتاح العلوم. أبي يعقوب يوسف السكاكي، تح: حمدي محمدي قابيل، ص٣٦٨، المكتبة التوفيقية .د.ت.

(٢) ينظر متشابه القرآن. د.إبراهيم الخولي، ص٢٧، ط١، دار البصائر ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٣) حقائق التأويل في متشابه التنزيل. السيد الشريف الرضي، شرح: محمد الرضا آل كاشف الغطاء، ص٢، ط١، دار الأضواء بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٤) ذكر "السكاكي" أن أكثر المتشابهات في القرآن الكريم من الإيهام (التورية)، وذكر ءايات من الذكر الحكيم تتحدث عن صفات الله تعالى من الاستواء ووجود الجارحة. المفتاح ص ٣٦٨ وهذه الآيات وإن كانت من المتشابه إلا أنها ليست من الإيهام أو التورية؛ لأن الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته من الغيبيات التي لم يطلع عليها أحد وليس في إمكانه تخيلها أو تمثلها؛ ولذلك فلا يكون ذكرها تورية وإيهاما بل من المتشابه المشكل الذي يوكل حقيقته إلى الله تعالى ومما يجب الإيمان به والتسليم له "كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا"(آل عمران: ٧).

يصح فيه أن يقصد ذلك، وأن يكون المعنى الواحد محتملا ضدين، أو مدحا وهجاء على حد سواء؛ لأنه كتاب أحكمت ءاياته، فلا تلبتبس حقائقه ومعانيه بما يضاد المقصود، فكيف تُحكَم ثم تحتمل ضدين؟ وإنما المراد بالمتشابه في القرآن العظيم: خفاء الدلالة، واشتباه المعنى؛ لقصور العقل البشري عن تمثل الغيب، ومعرفة صفات الله سبحانه وتعالى على الحقيقة إذا كان هذا المشتبه مما لا يدرك بالبحث والنظر، وإن كان مما يدرك بالنظر والتدبر فاشتباهه راجع إلى عدم إحاطة العقل البشري بلسان العرب جملة، وما يعرض من الخطأ والنسيان، وقصوره عن إدراك الدليل الذي يتبين به المراد تبعا لاختلاف القرائح، والتبحر في العلوم[1].

ابن الأثيرت (٦٣٧)هـ: التوجيه عند ابن الأثير عدول عن ظاهر اللفظ فيرجع أكثره إلى التأويل، وهو من أظرف التأويلات المعنوية وأغربها، وقسيم لتأويل المعنى بحيث يفهم منه الشيء وغيره، وهذه الغيرية إذا كانت ضدا كان المعنى توجيها، يدل على حسن تأتِّي الشاعر وبراعته، وهو قليل الوقوع جدا، هذا ما قرره "ابن الأثير" ولكنه رجع عنه فقال: "...وهذان التأويلان من الأضداد. وكثيرًا ما يرد أمثال ذلك في الأحاديث النبوية"[2] تقريره قلة الوقوع أولا قد يكون حكما خاصا بالأدب النثري والشعري؛ فعنوان الكتاب يخص الكاتب والشاعر، كما أنه لابد أن يكون هذا الحكم مبنيا

(١) ينظر الموافقات. أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله، ٣٠٥/٣ وما بعدها، ط١، دار ابن عفان١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م، والتحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور، ١٦٠/٢، الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤ م.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير، قدمه: د.أحمد الحوفي، ود.بدوي طبانة، ٦٤/١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.د.ت.

على استقراء تام لفنون الأدب، وهو ما قرره "ابن الأثير" نفسه، فقد حكى عن نفسه أنه حفظ الشعر ووعاه صدره، ووقف على أشعار الشعراء قديمها وحديثها، وكل ديوان ومجموع، ومحفوظ ومسموع، وعرض كل دواوين الشعراء المفلقين على نظره، وأنفذ شطرا من عمره في ذلك، ثم قرر أن إحصاء الشعر يصعب لصعوبة إحصاء أسماء قائليه(١)، ولكن على كل حال فحكمه مبن على نظر وتقص، والبحث سيناقش في الفصل التالي إن شاء الله تعالى نماذج من ورود التوجيه في السنة النبوية المطهرة.

ابن أبي الإصبع ت(٦٥٤)هـ: لم يقتد "ابن أبي الإصبع" بـ"السكاكي" فخالف تسميته ناظرا إلى وظيفة هذا الفن – الإشكال والإلباس والاشتباه وعدم التعيين– وإلى الأصل اللغوي؛ فسماه بـ"الإبهام"، فالإبهام: أن لا يُعرف المأتى إلى المعنى، وعدم القدرة على اقتحام أسواره من أي ناحية؛ لأن قائله أحكمه وأصلده وأصمه، وأغلق منافذ الوصول إليه على التعيين، فأشبه الصخرة الصماء التي لا خرق فيها، وهو من القوة والإحكام بحيث لا يغلب معنى على آخر، بل يظهر المعنيان على السطح، فلا يتبين المراد، فأشبه الكلام رطانة الأعجمي التي افتقرت إلى صفتي البيان والتبيين، فلا يمكن تمييز كلامه أو استبانته، فلم يدر المخاطَب كيف يتأتى له، ولم يهتد إلى وجهه وغرضه؛ لاستغلاقه وإشكاله، وعدم اتضاح جهته، والافتقار إلى الدليل فأُبهم عن البيان، وأشبه المعضلة، فهو كلام مشكل ليس له باب يدخل منه إليه، ولم يجعل له وجها يعرف به، فلا يستقر المتلقي على معنى، ولا يقرّ قراره بفائدة يتحصل عليها فتسكن نفسه؛ لأن المعنى بهيم لا يتبين ما تحته، مجهول لا يعرف له وجه، جامد عن الفائدة، مصمت لا يتخلله ضوء

(١) المثل السائر ٢/٢٢٥، ٢٢٩

الفهم وإنارة العقل، مغلق عن النفاذ إلى دواخله وكشفه واستشفافه، وكذا الإبهام لا يبدد كثافته وإلباسه تمييز أو تنوير أو تدبر أوتفكير، ويتكاثر المعنى على التحديد والتمييز[1]؛ ولذا كانت تسمية "ابن أبي الإصبع" أسدّ؛ لمخالفة الإبهام للتوجيه في كون التوجيه ترجيحا أحد المعنيين بدليل أو قرينة على خلاف الغرض من الإبهام التعمية والتغطية.

استفاد "ابن أبي الإصبع" من تسمية شراح التلخيص دون إشارة إليهم، ونقل كلامهم ولكنه حرر وحبر، فاستخلص زبدة الشروح، فترجمته للإبهام[2] هي تسمية "التفتازاني"[3] و"ابن يعقوب المغربي"[4] للتوجيه بـ"محتمل

(١) استفدت هذه المعاني من الأصل اللغوي لمادة (ب هـ م)، ينظر مقاييس اللغة، ولسان العرب. مادة (ب هـ م).

(٢) باب الإبهام: وهو أن يقول المتكلم كلاما يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما على الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصدا. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ابن أبي الإصبع المصري، تح: د.حفني محمد شرف ص٥٩٦، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م، فقول "ابن أبي الإصبع": "كلاما يحتمل ضدين" هو قول "التفتازاني":" مختلفين: أي: متباينين متضادين". مختصر سعد الدين التفتازاني ضمن شروح التلخيص ٤/٤٠٠، وهو أيضا قول "ابن يعقوب" و"التفتازاني": "ويسمى أيضا محتمل الضدين"، مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص. ابن يعقوب المغربي، ٤/٤٠٠، والمطول ص ٤٤٣، وقوله: " لا يتميز أحدهما على الآخر " هو قول "ابن يعقوب" و"الدسوقي": " على حد سواء" و"فإنه محتمل على السواء لمعنيين متضادين". مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص. ابن يعقوب المغربي، ٤/٤٠٠: ٤٠١ وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٤/٤٠٠

(٣) ينظر المطول في شرح تلخيص المفتاح. سعد الدين مسعود التفتازاني، ص٤٤٣، صححه: عثمان افندي زاده، المكتبة الأزهرية للتراث١٣٣٠هـ .

(٤) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص. ابن يعقوب المغربي، ٤/٤٠٠، دار الإرشاد الإسلامي. بيروت.د.ت.

الضدين"، كما استفاد من "ابن رشيق" في تسميته باب "ما أشكل من المدح والهجاء"[١]، فخصص "ابن أبي الإصبع" "التوجيه" بفنون الشعر كالمديح والهجاء وغيرهما، وإن لم يكن فيه من لفظ المدح والهجاء شيء، فالعبرة بما يفهم من صورة اللفظ دون نظر إلى القرينة.

وقد لاحظ "ابن أبي الإصبع" في كلام "ابن يعقوب" صورتين للمصطلح: أحدهما باعتبار اللفظ وقرينة الحال وهو:"احتمال الضدين"؛ لكون الكلام محتملا معنيين متنافيين متضادين على حد سواء بالنظر إلى نفس اللفظ (سواء)[٢]، والآخر: باعتبار المعنى وهو "التوجيه" باعتبار ما يفهم من تركيب اللفظ وبنيته مجردا عن قرائن الأحوال، فالتوجيه: لا يتبادر من صورة لفظه أحد المعنيين المتضادين إلى الذهن، فالأمر مبني على الاحتمالية والتسوية توسعا في المعنى، وليس ذلك في اللفظ[٣].

السلجماسي ت نحو (٧٠٤) هـ: عني بالمنطق فقسم ورتب وأحصى، اعتبر البلاغة صنعة، فنظر إليها نظرة كلية محصيا قوانينها وموضوعاتها، فنظر في الهيئات الحاصلة عن كيفيات مآخذ الشعراء في أغراضهم، وما يعتمدون من صور تقبلها النفس أو تنفر منها، فأحصى أساليب النظم ورتبها على جهة الجنس والنوع، فقسمها إلى عشرة أجناس عالية، وجعل التوجيه قسما ضمن الجنس التاسع الذي سماه "الانثناء"[٤] وهو الصرف، ورد بعض

(١) ينظر ص ١٢ من البحث.

(٢) في قول الشاعر: ليت عينيه سواء

(٣) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص. ابن يعقوب المغربي، ٤٠١/٤

(٤) ينظر المنزع البدع في تجنيس أساليب البديع. أبي محمد القاسم السلجماسي. تح: علال الغازي، ص١٧٩: ١٨٠، ط١، مكتبة المعارف الرباط ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

الكلام على بعض، وجعلهما متواليين أو متباينين[١]، وتفنن المتكلم في أنحاء الكلام وجهاته[٢]، و"الالتفات" جنس متوسط يدخل تحته نوعان هما: الالتفات والعدول، والعدول: صرف، وتجاوز، واحتمالية، وتوسع، وتسوية بين الشيئين وعدم الترجيح بينهما، وميل من المعنى إلى الآخر[٣]، وهو جنس متوسط أيضا يدخل تحته نوعان: الأول: التتمة والآخر: التوجيه: وهو اسم معنى (مصدر) يدرك بالذهن يتصور به "إفادة الشيء من وجهين"[٤]، وهو من العدول والتجاوز، حيث يتجاوز المتكلم المعاني الأول إلى الثواني، ويجعل الأول ذريعة أو وصلة أو تمويها أو إغماضا أو تعمية أو إبهاما... أو غير ذلك من أغراض القول إلى الثواني؛ لمشابهة بينهما في جوهر مشترك لهما[٥]، فالإخبار عن المعنيين المحتملين المرجوحين لا الراجحين هو حصول المعنى وصدقه على المعنى الأول والثاني على السوية، فوقوع المشابهة ليس لنفس مفهوم اللفظ وموضوعه بل شبها في حال لمعنى خارج عنه وهو استحالة اجتماع الضدين (العمى والإبصار) في قول بشار: ليت عينيه سواء في حال واحدة، ومحل واحد، فامتناع الشركة في المعنى بسبب مفهوم اللفظ[٦].

---

(١) مقاييس اللغة. مادة (ث ن ي).

(٢) ينظر المنزع البدع في تجنيس أساليب البديع ص ٤٤١

(٣) ينظر لسان العرب. مادة (ع د ل).

(٤) المنزع البدع في تجنيس أساليب البديع ص٤٥٦

(٥) السابق نفسه ص٤٤٨

(٦) ينظر معيار العلم في فن المنطق. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تح:د. سليمان دنيا، ص٧٤، دار المعارف، مصر١٩٦١م.

ونتيجة للتأثر بالمنطق والتقسيمات جعل "السلجماسي" التوجيه جنسا متوسطا وأدخل تحته نوعين هما: الملاحظة والخروج، وأدخل تحت الملاحظة نوعين: الاقتصاص والتفريع، وأدخل تحت الاقتصاص نوعين أيضا: الاستطراد والإدماج، وهذه التقسيمات المنطقية العقلية إن كانت مما يفيد في تقليل الأقسام وترتيب المواد لكنه مملل ويصرف القارئ عن المتابعة ويشتت تركيزه، وإقحام مصطلحات المنطق في الكتاب أثقل كاهله.

العلوي ت (٧٠٥) هـ: لم يقيد "العلوي" الوجهين الذين يحتملهما التوجيه بكونهما مختلفين أو متغايرين أو ضدين، ولكنه عرفه بمفهوم عام يتسع لأن يدخل فيه استعمالات عديدة ليست منه، فقال: "أن يكون الكلام له وجهان"[١]، فأطلق الوجهين ليدخل في استعمال التوجيه ما ليس منه كتأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والاستتباع، ولم يذكر للتوجيه مثالا واحدا مما اتفق العلماء على كونه توجيها إلا "ليت عينيك سواء" وجعله مما يحتمل المدح والذم على جهة الاستواء، وكان هذا المثال كافيا لائقا بالتعريف الذي ارتضاه من علماء البيان ونقله عنهم، كما أنه أدار الأغراض الشعرية التي اختارها أمثلة وشواهد على غرضين أو وجهين هما المدح والذم رغم أنه أطلق الوجهين عن الضدية.

الحلبي ت(٧٢٥) هـ: حذا "الحلبي" حذو "ابن أبي الإصبع" حيث جعل احتمال الكلام ضدين إبهاما[٢]، أما التوجيه عنده فهو ما عرف عند المدرسة

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ، تح: د. عبد الحميد هنداوي، ٧٤/٣، المكتبة العصرية ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر حسن التوسل إلى صناعة الترسل. أبي الثناء شهاب الدين محمود الحلبي، ص٨٧، طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٨هـ.

السكاكية بالاستتباع، وهو المدح بشيء يقتضي المدح بشيء آخر[١]، ومثل له ببيت المتنبي:

نَهَبْتَ مِن الأَعْمَارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئْتَ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

الذي فسره "ابن جني" بالمدح الموجه[٢]، والتوجيه بهذا المعنى هو استلزام المعنى الأول معان تتبعه وتطلبه، وبناء المعاني بعضها على بعض، فالمعنى الأول وهو كثرة القتل ونهب الأعمار ممهد للثاني ووصلة إليه، والثاني تابع له يتطلبه ويتبعه؛ ليستقيم الغلو بالدعاء للمدوح بالخلود لضم أعمار القتلى إلى عمره، فالمدح يستتبع مدحا، والذم يستتبع ذما، ويكون مراد "ابن جني" بالتوجيه أن البيت به وجوه أخر للمدح تستلزم المعنى الأول وتتبعه، منها: أنه لا يجرؤ إنسان أن ينال من الممدوح فهو يختطف الأعمار ويستلبها، ومنها: صلاح الدنيا بوجوده؛ ولذلك يهنأ أهل الدنيا به، وهذه الوجوه هي ما سماها "العسكري" بـ"المضاعفة"[٣]، أي: تضاعف المعاني واتساعها وبناء بعضها على بعض.

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ص ٩٠

(٢) قال ابن جني: " لو لم يمدحه إلا بهذا البيت وحده لكان قد بنى له ما لا يخلقه الزمان، وهذا هو المدح الموجه؛ لأنه بنى البيت على ذكر كثرة ما استباحه من أعمار أعدائه ثم تلقاه من آخر البيت بذكر سرور الدنيا ببقائه واتصال أيامه". الفسر. شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، أبي الفتح عثمان بن جني، تح: د. رضا رجب، ٨١٢/١، ط١، دار الينابيع دمشق ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر كتاب الصناعتين ص ٤٢٣

الخطيب القزويني ت(٧٣٩)هـ: لم يخرج تعريف "القزويني" للتوجيه عن تعريف شراح التلخيص "إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين"[١] ولكنهم أضافوا قيدا وهو على (حد سواء) (بالسوية) أي: استواء الاحتمالين، وفسروا الاختلاف بالتضاد، ولكن "القزويني" أخرج الاختلاف عن الضدية؛ لاستشهاده بآية من القرآن الكريم وهو ما لا يحتمل إيهاما أو تعمية، كما أن الاختلاف لغة يشير إلى الوراء والبعدية[٢]، فما يفهم من النص معنى ظاهر قدامي، وما يدركه المتلقي معنى ورائيا وظلا خفيا يوحي به الكلام ويوميء إليه.

ابن حجة الحموي ت(٨٣٧)هـ: استوعب "الحموي" ما كتب في "التوجيه" استيعابا شاملا، وأعمل فكره متذوقا لأمثلته وشواهده فرجح رأي "ابن أبي الإصبع" على غيره، فارتضى تسميته لهذا الفن بـ"الإبهام"، ودلل على ما ذهب إليه بأدلة عقلية يدعمها ذوق معلل يعادل إبداع "ابن أبي الإصبع" الذي حرر وحبر، يوافقه البحث على صحة الرأي والتعليل، فرأى أن ما استشهد به المتقدمون على التوجيه أولى به الإبهام وأحق، وعالج نقص الشواهد في هذا الفن، وهو محق فيما رأى، فجميع المصادر نقلت بيت بشار: ليت عينيه سواء، وهذا النقص راجع إلى صعوبة هذا الفن ودقته، وصعوبة مسلكه، ثم نقل عن المتأخرين في الفترة الزمنية التي امتازت بما يعرف بـ"البديعيات"، افتتحها "صفي الدين الحلي" ت٧٥٠هـ، بـ"شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع"، وتابعه من جاء

(١) الإيضاح في علوم البلاغة.جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تح: د. عبد القادر حسين، ص٤٣٤، ط١، مكتبة الآداب ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) لسان العرب. ماد (خ ل ف).

بعده، فنظم "ابن جابر الأندلسي" ت٧٨٠هـ "الحلة السيرى في مدح خير الورى"، ولكنه لم ينقل تعريف "الحلي" في التوجيه، بل جعل التوجيه ما يحتمل وجهين مختلفين من المدح والذم، أو متساويين من المدح والمدح، أو مختلفين من غيرهما، وراعى مقام الأدب مع النبوة فلم يمثل للمدح والذم[١]، و"التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع" لـ"عز الدين الموصلي" ت٧٨٩هـ، وأما جلال الدين السيوطي" ت٩١١ه فنقل تعريف "صفي الدين الحلي" أيضا، ولكن البيت الذي استشهد به:

وَأَمْرُهُ نَافِذٌ مَاضٍ وَمَنْطِقُهُ مُوَجَّهٌ وَنَدَاهُ غَيْرُ مُنْجَزِمِ[٢]

لا يناسب معناه التعريف الذي نقله وارتضاه عن "الحلي"، وهو:" أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملته إلى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد علوم وغير ذلك مما يتشعب له من الفنون توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي بخلاف التورية"[٣]وهذا هو تعريف "صفي الدين الحلي"[٤] نصا كما ذكر "الحموي" فلم ينتحل أقوال السابقين بل نسب كل قول إلى قائله، كما نقلت "عائشة الباعونية" ت

(١) الحلة السيرى في مدح خير الورى. ابن جابر الأندلسي، تح: علي أبو زيد، ط٢، عالم الكتب ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) نظم البديع في مدح خير شفيع. جلال الدين السيوطي، تح: الشيخ: علي محمد معوض، والشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، راجعه وقدم له: عبد الفتاح أبو سنة، ص١٢٩، ط١، دار القلم العربي بحلب ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين أبي بكر بن حجة الحموي، ص١٧٠، الذخائر ٢٢٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠١٤م.

(٤) شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع. عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الشهير بصفي الدين الحلي، تح: د. نسيب نشادي، ص١٢٢، ط٢، دار صادر ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٩٢٢هـ[١] عن "الحموي" التعريف وبعض الأمثلة، وكذلك ابن معصوم المدني ت(١١٢٠)هـ[٢]، ولسنا في مقام تتبع البديعيات، فنعود إلى تعريف "الحموي" الذي نقله عن "الحلي"، فهو ليس توجيها بل تورية وإن أنكر هو ذلك، فالتوجيه لا ترجيح فيه بين المعنيين، فالمعنييان متكافئان ويصلحان توجيها للمعنى، وما ذكره من أسماء الأعلام وقواعد العلوم يصدق على التورية خاصة ما أعجب به من شعر "علاء الدين الوداعي"ت ٧١٦هـ من إقحام مصطلحات العلوم والفنون في الشعر، وهي أبعد ما تكون منه؛ لجمودها، وخفائها على المتلقي إن لم يكن عالما بها، وبعدها عن روح الشعر، واستخدامها في الشعر إظهارا للمقدرة والبراعة والعلم، وتمويها بأنه شاعر عالم، واستعراضا للثقافة؛ ليُشكل صوره الفنية، ويصنع منها تورية، وهو حامل لواء البديع في التورية[٣]، وقد ذكر "الحموي" نفسه أن التورية يقال لها: توجيه، واستشهد في التورية بشواهد ذكرها بعينها في التوجيه[٤].

<u>ابن معصوم المدني ت(١١٢٠) هـ:</u> افتتح كلامه عن "التوجيه" بقبح الابتداء مهاجما "ابن حجة"، فخطّأه في القياس الصرفي نافيا عنه الفهم والعلم، وكان أليق بالمقام، وأحق للعلم أن يفتتح كلامه بالصواب، ويستشهد،

---

(١) الفتح المبين في مدح الأمين. عائشة الباعونية. تح: د. مهدي أسعد عرار، ص١٩٠، د.ط.ت.

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع. السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، ١٤٤/٣، ط١، مكتبة العرفان بكربلاء.د.ت.

(٣) ينظر علاء الدين الوداعي الكندي حياته وشعره وما بقي من ديوانه. رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، ص٩، ٩٧، ٩٩، دار كنوز المعرفة١٦ يونيه ٢٠١٦م.

(٤) ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب ص ٢٩٥، ٣٣٩

ويدلل، ثم يذكر رأي "ابن حجة" ناقدا مستدركا عليه، مصوِّبا دون تجريح أو نيل احتراما لمكانة العلماء في قلوب الناشئة وطلاب العلم، ومراعاة للأدب الواجب معهم، وكان حريا به عندما ذكر معنى "التوجيه" اصطلاحا أن يذكر رأيه وما توصل إليه اجتهاده، ولكنه ابتدأ ناقلا فقال:"وأما التوجيه في اصطلاح البديعيين فهو عند جماعة كالسكاكي والخطيب والطيبي... وجاء جماعة من المتأخرين..."[١]، ولم يحدد تعريفا للتوجيه، ولكنه خطأ جماعة "السكاكي" لأنهم خلطوا حين سموا محتمل الضدين على السوية توجيها، وأطلقوا التوجيه على مدلول الإبهام، وباطن كلامه يميل إلى مذهب "ابن أبي الإصبع" وتسميته مع أنه خلط بينهما وسوّى، فذكر أن التورية تسمى: إبهاما وتوجيها وتخييلا[٢]، وما ارتضاه من إيراد أسماء الأعلام ومصطلحات العلوم كأصول الفقه، والمنطق، وعلوم العربية، والحساب، والهندسة، والنجوم توجيها، فليس صحيحا؛ لأن أسماء العلوم المفردة لا تحتمل ضدين على السوية، وإيرادها في الشعر يعد تضمينا مورى به، ففي باب التورية يقول: ".... ومن بديع اقتباس القاضي المذكور بالتورية..... ومن مخترعاته في باب التورية مع بديع التضمين."[٣]، وقد سبقه "الحموي" إلى ذلك [٤]، كما أن التوجيه يكون بالكلام لا باللفظ المفرد.

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع. السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، ١٤٤/٣، ط١، مكتبة العرفان بكربلاء.د.ت.

(٢) ينظر السابق نفسه ٥/٥

(٣) ينظر أنوار الربيع في أنواع البديع ٥/ ٢٧، ٧٧

(٤) يقول: "الحموي" في باب التورية: "...ومن مخترعاته في باب التورية مع بديع التضمين.... وقلت موريًا ومقتبسًا..... وقولي: موريًا مع بديع التضمين.... وقولي موريًا ومضمنًا" ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب، ص ٤١٤،٤٢١، ٤٢٢، ٤٣١،٤٣٤.

هذا ...والبحث يؤيد ما ذهب إليه "ابن أبي الإصبع" من أن احتمالية الكلام لوجهين متضادين على السواء إبهاما وليس توجيها، ويميل إلى رأي الخطيب "القزويني" الذي أطلق التوجيه عن الضدية واستواء الاحتمالين، فجعله إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين استنادا للأصل اللغوي للاختلاف، فهو: "أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام... والخليفى: الخلافة، وإنما سميت خلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول قائما مقامه" (١)، وهذا المعنى اللغوي هو المراد في التوجيه، وهو أعم من التورية؛ فأحد المعنيين مرادا فيها، ولكن التوجيه أعم؛ لأن المعنى الظاهر مراد، والمعنى الثاني آت بعده محتمل من السياق.

(١) مقاييس اللغة. مادة (خ-ل-ف).

الفصل الثاني

نماذج من السنة النبوية المشرفة

إن إشارة "ابن الأثير" إلى أن التوجيه كثيرا ما يرد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] دافع إلى التفكير، وحافز للذهن ومحرك له أن يبحث عن حقيقة هذا القول في كلامه صلى الله عليه وسلم، فلماذا حكم "ابن الأثير" علي بيانه بهذا؟ ولماذا وجه تفكيره في هذا المسلك؟ وما النتائج المترتبة على الحكم على البيان النبوي بأنه أكثره يعد توجيها؟ وهل يمكن تعميم الحكم بأن جانبا كبيرا من أحاديثه صلى الله عليه وسلم كذلك؟ ...الأحاديث النبوية وسيعة زخارية، مترامية الأطراف، لا ينهض إنسان كائنا ما كان أن يستوعب أجزاءها، ويحوي متفرقها، والعلماء درجات فيما وعوا منها، وقد ملأ الصحابي الجليل "أبو هريرة" رضي الله عنه الدنيا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر أنه بلّغ نصف ما سمع، وما لم يبلغه لو بثّه لانقطع البلعوم[2]؛ فالسنة بيانا للقرآن الكريم وتفريعا عليه، ومقاصد القرآن الكريم هي ما تقررت وفُصلت في السنة، وهي ثلاثة أقسام: ضروريات، وحاجيات، وتحسينات[3]، وسيقتصر البحث على نماذج من

---

(١) المثل السائر ٦٤/١

(٢) حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَخِي، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ".صحيح البخاري.أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، كتاب (العلم)، بَابُ (حفظ العِلْمِ)، حديث رقم ١٢٠، ٢٥/١، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر ١٣١١ هـ .

(٣) الموافقات. أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، تح: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ٣٤٦/٤ وما بعدها، ط١، دار ابن عفان١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

الضروريات، فالضروريات خمس: هي حفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض.

أولا: حفظ الدين، ويتضمن: الإسلام والإيمان والإحسان، ومن الأحاديث الضابطة التي عرفت بالمسلم، وقيدت حدوده في إطار مجتمعه: "عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[1] فحفظ اللسان واليد حفظ للدين، وهجرة الفواحش كذلك، فأحسن الاستهلال بسلامة اللسان وثنى باليد؛ لأنهما أصل الفواحش، وهما أول شاهد عليه يوم تشهد الجوارح وتنطق، وإذا طبقنا التوجيه في الحديث الشريف باعتبار احتمال الحديث وجهين مختلفين، يتحقق كون الخيرية لمن سلم المسلمون من لسانه ويده، وتحقق ضدها (الشرارة) لمن لم يسلم من لسانه ويده، فالحديث محتمل وجهين من هذا الجانب، وليس مموها أطلق أمرا وأراد غيره مما يلتبس به، بل هو عمل للعقل، وإثبات وتقرير ما هو حسن يجمل بالمسلم أن يتخلق به، ونفي ما عداه، والضدان هنا لا يجتمعان في حال واحدة للمسلم، ولا يظهران على سطح الأسلوب بل أفاد المعنى المقرر أمرا، واستنبط العقل الضد؛ لقرب حضوره بالبال، فإذا لم تتحقق سلامة الناس من لسان المسلم ويده اتصف بالشريرية، هذا ما اكتنزه الحديث من معنى في باطنه، يحتمله المقام ولا يتعارض معه.

(١) صحيح مسلم، كتاب (الإيمان)، بَابُ (بَيَانِ تَفَاضُلِ الْإِسْلَامِ، وَأَيُّ أُمُورِهِ أَفْضَلُ)، ص٣٢، أخبار اليوم. قطاع الثقافة.د.ت.

ومن أحاديث الإيمان:"عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[1] الحديث موجز موح، حث ترقى بالإنسان من نزعاته وأهوائه بالبراءة عن آفات اللسان واليد وكف الأذى إلى حب الخير للغير، فالفضائل وحب الخير وتنميته بصفته خاصة أهداف للإسلام حرص على تربيتها في نفس المسلم؛ ليرقى في سلم الإيمان، فيتحقق أمن المجتمع، ابتدأ البيان النبوي بالسلب(لا) دلالة على غرض الكلام، ومناسبة لما اتصل به من نفي حب الشر للغير، ومشوقة لما يرد بعدها منسحبا عليه النفي، فالمطلع يثير انفعال السامع/القارئ، وكانت من عادته –صلى الله تعالى عليه وسلم– أن لا يقول: لا أبدا؛ ولذلك أطر النفي بـ(حتى) المؤذنة بانتهاء غاية النفي إلى أن يتحقق منه تجدد حب الخير المقيد بمماثلته لحب ما يتغياه الإنسان لنفسه من الخير، وإذا ابتدأ البيان النبوي بـ(لا) فهو تنبيه إلى الضد لا محالة وإشارة إليه، فالوجه الآخر وهو الإثبات محتمل ومراد، فالإيمان يتفاوت على حسب الشخصيات والنزوع والاستعداد والأهواء والرغبات، يعاد تكوينه في شكل جديد في انعزال عن الظروف المادية، فالحب معنى، وأمنية تتحقق بمجرد الشعور والإحساس والمشاركة الوجدانية دون وجود فعلي ملموس، والحياد في هذه الحال لا وجود له، بل لابد من مقاومة نزعات الشر والشيطان، والإحساس بالمسئولية بمقاومة نزعات الأثرة والأنانية.

(١) صحيح مسلم ، كتاب (الإيمان)، باب (من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، حديث رقم ١٣، ص١١.

وترقت الأحاديث في كتاب (الإيمان) من صحيح البخاري من حب الخير المراد للنفس للغير إلى تفضيل الغير على النفس " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ"(١)، إن إرادة الخير للغير تعني إن مصلحة الآخرين تساوي مصلحتنا، ولم تقف تطلعات المصطفى –صلى الله تعالى عليه وسلم– بالإرادة الإنسانية على النفع المادي بل سمت إلى أفق أسمى وأرحب حيث خلّت الإنسانية من ذاتيتها وفرديتها وأدمجتها في الرحاب المحمدي الذي يتسع لأمتي أمتي دمجا مرغوبا فيه؛ ولذلك استهل – صلوات الله تعالى وسلامه– عليه بالقسم (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) تثبيتا لهذا المعنى وتقريرا له؛ لأن الواقع يشهد تضادا بين ما هو موجود متحقق وبين ما ينبغيه –صلوات الله تعالى وسلامه عليه–، وهو مرغوب فيه؛ لأنه تحرر من رق الهوى والأنا، واستهلال الحديث بالنفي (لا) مثير تلقائي للذهن أن يستنبط أن الإثبات مراد ويتحقق به الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤]، إن إيثار البداءة بالنفي على صوغ الحديث بأسلوب الشرط (إذا كنتُ أَحَبَّ إلى أحدكم من والده وولده تحقق إيمانك) لأن الأولوية المطلقة للإيمان، وهو الباعث المسيطر على فكره ووجدانه – صلوات الله تعالى وسلامه عليه–، له منطق نفسي خاص عنده جعله يكسب بيانه نوعا من الإقناع، كما أنه المحور الذي عنون به "البخاري" كتابه.....

(١) صحيح البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان)، حديث رقم (١٤)، ص١١

أسلوب النفي موجِّه للإثبات توجها ضمنيا، فلا يُفهم النفي إلا في ضوء الإثبات، لأنه الأصل، ووجود النفي سابق عليه.

وللإبهام مدخل في عطف الكلام نحو التوجيه " عن أنس، عن النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم– قال: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[1] فاستهلال الكلام بالعدد إحصاء وحصر، فإذا تخلفت صفة لم يتحقق الجواب، ولم يميز العدد بمعدود يدل على نوعه أو مقداره، ولكنه أضمر اعتمادا على ذكاء السامع/القارئ وفطنته، فالعدد مذكر وهو ما يقتضي أن يكون المعدود المضاف مؤنثا[2]، أي: ثلاث صفات أو خصال، والخصلة أولى حملا على حديث النفاق "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ"[3] ففي الحذف تنشيط وتثوير، وإبهام ثم تفصيل، وفعلا الشرط وجوابه (كن، وجد) إرهاص بالضد، فما لم تكن هذه الخصال كائنة فيه لم توجد الحلاوة، فالبيان له وجه، ويستشف منه بالفحوى وجها آخر مقابلا للأول، لكنه لم يبرز على سطح المعنى؛ لكيلا يكون البيان موهما، كما أن المقام روحاني إيماني فناسبه التصريح بما يحث عليه ويرشد إلى طريقه، ومما هو على بال هنا أن تحقق الكون غير محسوس، والوجود كذلك، فالمراد

(١) صحيح البخاري ، كتاب (الإيمان)، باب (حلاوة الإيمان)، حديث رقم (١٦)، ص١١

(٢) ينظر شرح المفصل للزمخشري. موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، قدم له: د. إميل بديع يعقوب، ٥/٤، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (علامة المنافق)، حديث رقم (٣٤)، ص١١

بالكون: الحدوث والتصور، والمراد بالوجود: الإدراك لما هو مرغوب فيه إدراكا نفسيا.

هذا وقد اجتمع الوجهان المتضادان (مدح وذم) مصرحا بهما في قوله -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-: "آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ."[1] فلو اقتصر البيان على النصف الأول من الحديث لفهم الوجه الآخر، ولكنه استقصاء للمعنى، ونص عليه بصريح اللفظ، وتقرير له في ذهن السامع/القارئ، فلم يرد أن يُفهم المعنى من السياق وقرائن الأحوال، فللذين تبوءوا الدار والإيمان منزلة سامية في قلبه -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، فلو سلكوا شعبا أو واديا لتبعهم، ومحسنهم محسن إليه، ومسيئهم متجاوز عنه؛ ولذلك كرر ذكرهم، فأظهرهم في موضع الإضمار مستلذا ذكرهم، وقدم الحب على البغض؛ لأنه أصل مستلزم عن حبه -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، مكمل له، وخلق كسبي تستعد لقبوله كل نفس زكية بالخير النفساني، مطهرة عن الكدر والخبث، وكذلك إذا أراد -صلوات الله تعالى وسلامه عليه- النص على الحكم الشرعي نصا صريحا " عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ وَمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بِحَجٍّ، فَقَدِمْنَا مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ وَلَمْ يُهْدِ فَلْيَحْلِلْ، وَمَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ وَأَهْدَى فَلَا يَحِلُّ حَتَّى يَحِلَّ بِنَحْرِ هَدْيِهِ، وَمَنْ أَهَلَّ بِحَجٍّ فَلْيُتِمَّ حَجَّهُ...."[2] أتى بالحكم

(١) صحيح البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (علامة الإيمان حب الأنصار)، حديث رقم (١٧)، ص١١

(٢) السابق نفسه، كتاب (الحيض)، باب (كَيْفَ تُهِلُّ الْحَائِضُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ)، حديث رقم (٣١٩)، ص٦٢

وضده منصوصا عليه مصرحا به مذكورا إظهارا للحقائق، وأمانة في التبليغ، وقوة في الأسلوب وإحكاما له.

صدق صحابة رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– ما عاهدوا الله عليه، فسددوا، واجتهدوا، وشددوا على أنفسهم، ولكنه –صلى الله تعالى عليه وسلم– كان بهم رءوف رحيم "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا"[1] قوله صلوات الله وسلامه عليه يحتمل وجهين من المعنى: الأول: الزجر والثاني: التعليم والإرشاد والنصح الهادئ، وكذلك جوابه عن الأعرابي حين سأله عن الإسلام بقوله:" أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ"[2] يحتمل معنيين أيضا: الأول: الفلاح إن تحقق الصدق، والثاني: الخسران إن كذب، فـ"إن" الشرطية غير الجازمة مكنته –صلوات الله تعالى وسلامه عليه– أن يضع احتمالا دون جزم، ويعلق النتيجة على تحقق المقدمة (فعل الشرط)، وشرف البيان النبوي أن يترفع عن وصم الأشخاص بالكذب؛ فيعامل الناس بما يبدو منهم، والله –تعالى– يتولى سرائرهم، وبهذا يكون التوجيه وسيلة لإذكاء مشاعر الصدق وترسيخها في نفوس السامعين؛ ولذلك بادر –صلى الله تعالى عليه وسلم– بالنتيجة فقدمها (أفلح)؛ للتعجيل بالمسرة.

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب (الإيمان)، باب (قول النبي صلى الله عليه وسلم أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالى: "ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم")، حديث رقم (٢٠)، ص١٢

(٢) السابق نفسه، كتاب (الإيمان)، باب (الزكاة من الإسلام)، حديث رقم (٤٦)، ص١٧

وقد تضمنت إجابته –صلى الله تعالى وسلامه– عليه عن سؤال جبريل له عن الإيمان والإسلام والإحسان إشعارا بأن ضد ما أجاب به إن تحقق لم يحصل إيمان ولا إسلام ولا إحسان، فالكلام تقريري خبري، ولكنه يحمل في أحشائه ولائد تفهم بالفحوى، فعندما يقرر –صلى الله تعالى عليه وسلم– وبارك أمرا كان يجافي منطقه عن الهزر والمط والفضول، فيوجز مع تكرير كلامه ثلاث مرات أحيانا ليفهم، وفي هذا بلاغ للناس وتبيين، ويترك لقرائحهم البيانية أن تولد وتستنبط وتقيس، فالنفس متجاذبة بين خير وشر أبدا، ورسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم وبارك– يقرر الخير، ويعرف به؛ ولذلك لم يسأله أصحابه عن الشر إلا سيدنا حذيفة بن اليمان –رضي الله تعالى عنه–؛ لأن فطنتهم البيانية وقرائحهم المتوقدة مهيأة لأن يدركوا خفايا الكلام وأسراره، ومن شأن النفس اليقظى الحساسة أن تفكر فيما يلقى إليها وتقلبه على وجوهه، وتنظر في مراميه وأهدافه، ومن هذا الوجه حكم "ابن الأثير" على كلام رسول –صلى الله تعالى عليه وسلم وبارك– أن أكثره توجيها.

حرص رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم وبارك– على تبليغ دعوته جميع الناس، وتنجيتهم من العذاب الأليم أيا كان نوعهم أو جنسيتهم: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"[1] حضر أسلوب التوكيد حضورا طاغيا، أسلوب القسم استهلالا وليه أسلوب قصر طريقه

(١) صحيح مسلم، كتاب (الإيمان)، بَابُ (وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ)، حديث رقم (٢٤٠-(١٥٣))، ص٦٢

النفي والإثبات؛ لدفع توهم أن البقاء على الملل السابقة ذات الكتب السماوية كاليهودية والنصرانية نجاة لمعتنقيها، واصطبغ الأسلوب النبوي بصبغة ذاتية شخصية منبعثة من قوله تعالى:"إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ" (النحل:٣٧)وقوله: "أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ"(يونس:٩٩) محاولا الضغط بقوة على المتلقي، وسلبه حرية الإرادة إزاء هذه القوة التي تستمد قوتها مما أنزل به، وإقناعه بتقرير النتيجة الحتمية (كان من أصحاب النار) لمن سمع ولم يؤمن بما أنزل به، وهذا الوجه الظاهر للخطاب النبوي الشريف يحتمل وجها آخر مضادا يتخلق في السياق العام وهو أن من سمع وآمن كان من أصحاب الجنة، فالخطاب النبوي الشريف منبهة للذهن، ومثير وحافز للطاقات الإدراكية لدى المتلقي، فلم يكتف بآداء المعنى واضحا بل ثوّر عقل المتلقي ليستشف ويستنبط ويقيس، ويسأل عن حكم من لم يسمع.

ثانيا: حفظ النفس: أمر الشرع الحنيف بحفظ النفس وتعاهدها، كما حث على التعاون، وجعل الفرد عضوا فاعلا في خلية واحدة يكمل بعضها بعضا، ورفع الرجل درجة بقيوميته، وحرمت عليه رائحة الجنة بتضييع من يعول؛ ولذا طيبت السنة المطهرة أوجاع المنفق، وخلته عن إيثار نفسه، وحثته على الاستمرار؛ لدفع عجلة الحياة "عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا، فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ"[1] قيد الإنفاق بالجملة الحالية (يحتسبها)؛ ليكون أجر الصدقة واقعا لمن أنفق محتسبا، وهذا يفهم منه فحواه أن من أنفق ولم تكن نيته كذلك فلا تحتسب

(١) صحيح البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (مَا جَاءَ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...)، حديث رقم (٥٥)، ص١٩

له أجر الصدقة، فالقيد حمّل الكلام وجهين متضادين على السوية، أحدهما مدح والآخر ذم، ولم يُتكلف أو يُتعمل لجلب الوجه الآخر، فالمتلقي لهذا البيان النبوي يجد نفسه مدفوعا للعمل والامتثال والطاعة؛ طمعا في نيل الجوائز، قريرا بالمبشرات التي يتحف بها –صلى الله تعالى عليه وسلم وبارك– بيانه، فيبشر جهارا، ويتوارى الإنذار والضد في حواشي الكلام، فيسم هذا المسلك بيانه –صلى الله تعالى عليه وسلم– وبارك بالإيجاز والنزاهة عن الفحش والبذاءة والفجاجة "....وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة"(١).

ومن أبين المواضع التي تتجلى فيها حفظ النفس والوطن والعرض: الجهاد في سبيل الله: "عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً؟! فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا. فَقَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"(٢) عاش العربي في بيئة حتمت عليه أن يدافع كل إنسان حر عن نفسه لسانا ويدا، وكانت الفروسية مظهر عز العربي بنفسه، ومظهر عز قبيلته به، واستحر القتال ثأرا وعصبية وحمية؛ وخاف الصحابة على أعمالهم أن تحبط، فسأل الرجل –صلوات الله تعالى وسلامه عليه– عن القتل الخالص لله تعالى، فأجاب –صلوات الله تعالى وسلامه– عليه بإثبات حق، ولم يتعرض

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٣

(٢) صحيح البخاري،كتاب (العلم) ، باب (من سأل وهو قائم عالما جالسا)، حديث رقم (١٢٣)، ص٣٢

لنفى ما عداه مما عدده السائل صراحة، ولكن الإجابة تطوي في طياتها نفي وإبطال أن يكون قتال الحمية والغضب في سبيل الله، فلم يصرح بهما وسكت عنهما وكأن ما عدا إجابته باطلا، فالكلام بذلك محتمل ضدين، وأسلوب الشرط من الأساليب التي تعلق حدوث الجزاء بحدوث فعل الشرط، فالجزم فيها غير متحقق بالنسبة لحال المخاطَب من حيث الفعل والترك، و بهذا ارتفع بيانه –صلوات ربي تعالى وسلامه عليه– عن الإبهام والتعمية والتمويه والمواربة، فبيانه برئ من التلاعب بالألفاظ والحيل البلاغية.

ومن مظاهر حفظ الإسلام للنفس: إشاعة الأمن: " عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا"[1] إن كان مستحلا ذلك بغير حق، يوجه أسلوب الشرط الانتباه إلى الضد ويشير إليه، ويدل بمفهوم المخالفة أن من لم يحمل علينا السلاح فهو منا، فأسلوب الشرط يعلق الجزاء على حدوث الفعل، فيثبت نقيض الشيء المعلق على شرط عند عند عدم وجود الشرط، فهو مثير للتوقعات والتخمينات، فنص – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على حمل السلاح؛ لأن الأصل وجود الأمن والسلام بين أفراد المجتمع، فإذا برز من يزعزع هذا الأمن وجب تنحيته، ومعالجة هذه الظاهرة؛ ولذلك نص –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على الحمل؛ لكونه حدثا مهما يتوجب الحكم فيه، وترك الوجه الآخر وهو (ترك الحمل) منبهة للمخاطب؛ لأنه الأصل في حياة المجتمع والأكثر، ومن هنا يمكن القول إن هذا الحديث يشير إلى الأخلاق العلوية لسيدنا محمد –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والشخصية الموضوعية التي تهدف إلى تحقيق الخير.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب (الإيمان)، بَابُ (قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا")، حديث رقم(١٦١– (٩٨))، ص٤٦

ومنها حمل أمور الناس على الظاهر: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ"[١] دعا رسول الله –صلوات ربي تعالى وسلامه عليه وعلى آله أجمعين– إلى مسالمة الناس، وترك سرائرهم إلى الله –تعالى– تحقيقا للأمن المجتمعي الذي حرص الإسلام على ترسيخه في نفوس متبعيه: أسلم تسلم، وتتجلى مظاهر الإسلام في الاقتداء بالمسلمين في صلاتهم واستقبال قبلتهم وأكل ذبائحهم، فمن فعل ذلك فهو منهم ذكرا كان أو أنثى، تجب عليهم حمايته، ومن لم يفعل فليس منهم، فأسلوب الشرط علق حدوث الإسلام والتذمم على حدوث أفعال الشرط؛ فيفهم من فحوى الخطاب أن الإسلام دين عمل، وأن أعماله مركبة كل فوق الآخر في اتساق لا يمكن أن يستبعد أحد عناصره، وفي المقابل فإن من لم يفعل فلا يستحق ذمة الله ورسوله، ولا يكون له حق المسلمين وأمانهم وعهدهم وحرمتهم وكفالتهم، كما مكن أسلوب الشرط المخاطب أن يتحرر من التبعية والتقليد، فيوجه إرادته إلى أن في الفعل حدوث الجزاء وهو الأمان الذي تكفل به الله ورسوله، وفي الترك عدم الحصول على هذه المزية الخاصة بالمسلم، فالخطاب ذو وجهين: وجه ظاهر وهو المشروط بالفعل، ووجه باطن وهو المخالف المتروك المستنبط من الفحوى ودليل الخطاب[٢]، وهو كالمنطوق في البيان والإفادة، وبهذا يكون للكلام وجهان، ولكنهما ليس من المدح والذم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب (الصلاة)، باب (فَضْلِ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ)،حديث رقم (٣٩١)، ص٧٥

(٢) دليل الخطاب: أن يعلق الحكم على إحدى صفتي الشيء ، فيدل على أن ما عداها بخلافه. الفقيه والمتفقه ٢٣٤/١

ومن وسائل حفظ النفس تزكيتها عما ينقصها أو يشينها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ، فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ، فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟. قَالَ: كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ. فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ"(١) قول رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- صريح في قياس الضد عليه، وموجه إليه، وهو أن غير المسلم نجس، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨] فللمسلم أحكام وللمشرك خلافه، ولكن خرج الحكمان المتضادان من قول واحد ورود الوفاق مع وجود الخلاف، فالبيان ليس في الحقيقة مقابلة؛ وإنما هي متأولة عليه، ومردودة إليه.

ومنها: التجاوز عن حديث النفس والخواطر القلبية "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»"(٢) حفظ الله على النفس البشرية الضعيفة الألدة الخصام ما ينجيها من أمراض القلوب وخطراتها وخبيآتها ووساوسها على اختلافها وكثرتها وتنوعها، فلم يقيد حريتها النفسية أن تمارس نشاطها المرذول من بغض وحقد وغل وصراع وخصام وهمّ، وتنفس عن رغباتها الدفينة في الخيالات والأحلام، ولكنه حجم هذه القنابل النفسية الداخلية السلوكية من الانفجار والتفشي بعاملي الإرادة والعمل بالمؤاخذة على النتائج الفعلية للسلوك سواء أكان بالكلام أو الفعل، وهذا مما

(١) صحيح البخاري، كتاب (الغسل)، بَابُ (عَرَقِ الْجُنُبِ وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ)، حديث رقم (٢٨٣)، ص٥

(٢) صحيح مسلم، كتاب (الإيمان)، بَابُ (تَجَاوُزِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَالْخَوَاطِرِ بِالْقَلْبِ، إِذَا لَمْ تَسْتَقِرَّ)، حديث رقم (٢٠١-(١٢٧))، ص ٥٤

يُدفع أو يشك فيه بوجوب طهارة النفس ظاهرا وباطنا، ولما كان هذا أمرا مستحيلا لجريان الشيطان من ابن آدم مجرى الدم أُكد بـ(إن) للتحقيق والتثبيت والتقرير، وقُيد تكميلا بـ" مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ"، فأزالت (إن) شكا محتملا، وحققت أمرا مقطوعا به عن اعتقاد داخلي وهو التجاوز مقيدا، فيتحول هذا الأسلوب الخبري المؤكد إلى إنشاء ليطرح سؤالا مضادا: وماذا لو تكلموا أو عملوا؟ فيكون الجواب حتما عدم التجاوز، فالأسلوب الخبري المثبت المؤكد أرهص بالضد (فإذا تكلموا، أو عملوا به لم يتجاوز) ما لم يتب الفاعل، فالكلام محتمل لوجهين مختلفين متضادين.

ومن وسائل حفظ النفس أيضا اتخاذ الملبس ليسترها من أذى الحر والقر: "عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: "أُهْدِيَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُّوجُ حَرِيرٍ، فَلَبِسَهُ فَصَلَّى فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَنَزَعَهُ نَزْعًا شَدِيدًا، كَالْكَارِهِ لَهُ، وَقَالَ: لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِينَ"[(١)] قوله –صلوات الله تعالى وسلامه عليه–: "لا ينبغي" دليل على المنع من الفعل "ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة"[(٢)]، مرهص بضده وأن غير المتقين ينبغي لهم مثل هذه الثياب، فالمسكوت عنه مخالف للملفوظ به، يستنبط ويفهم من فحوى الخطاب وتنبيهه[(٣)]، فالنهي عن المتقين منبهة على أنه مباح مع غيرهم، أخرج

(١) صحيح البخاري، كتاب (الصلاة)، بَابُ (مَنْ صَلَّى فِي فَرُّوجِ حَرِيرٍ ثُمَّ نَزَعَهُ)، حديث رقم (٣٧٥)، ص٧٣

(٢) البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، ص٣٣٦، دار الحديث١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٣) فحوى الخطاب: ما دل عليه اللفظ من جهة التنبيه. الفقيه والمتفقه. أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تح: أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ٢٣٣/١، ط٢، دار ابن الجوزي – السعودية١٤٢١ هـ.

الكلام مخرج المدح في حق المتقين، ومخرج الذم في حق غيرهم موجها بحسب ما يفهم من الخطاب.

ومنها: الحرص على ما يحفظ صحتها:" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ – وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ عَلَى أُمَّتِي – لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ "[1] تتبع النفس البشرية هواها، فتركن إلى الدعة والكسل، وقد عالج الخبير النفساني الملهم هذا المنحى السلوكي بـ(لولا)[2]، فقد امتنع الأمر لوجود المشقة امتناعا معللا كاشفا عن حكمة المنع من الأمر بالتسوك لكل صلاة، وليس المنع جزافا أو خضوعا لهوى أو ميل ذاتي، وبرغم ترجيح السياق للمنع إلا أن الوجه الآخر لـ"لولا" محتمل، وهو التحضيض والحث، فإذا انتفت المشقة فيستحسن التسوك لكل صلاة....وهكذا قوله –صلى الله تعالى عليه وسلم– "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "طَهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولَاهُنَّ بِالتُّرَابِ."[3] قرر – صلى الله تعالى عليه وسلم– كيفية طهارة الإناء إذا شرب الكلب منه بلسانه؛ لما في ريقه من النجاسات المستقذرة التي تجلب الأمراض، بالجملة الخبرية (طهور..) وقيدها بالشرط (إذا ولغ فيه الكلب) ليخص طهورا بعينه، ففعل الطهور يكاد يغيب في ولغ الكلب؛ ولذلك جعل المسند إليه مصدرا (طهور) للكثرة، وتكاثر العدد ليكون سبع مرات، وعدل عن الاستفتاح بجملة الشرط؛

(١) صحيح مسلم،كتاب (الطهارة)، بَابُ (السِّوَاكِ)، حديث رقم (٤٢– (٢٥٢))، ص٩٧

(٢) لولا: حرف معناه: امتناع الشيء لوجود غيره. ينظر شرح المفصل ٩٠/٥

(٣) صحيح مسلم، كتاب (الطهارة)، بَابُ (حُكْمِ وُلُوغِ الْكَلْبِ)، حديث رقم (٩١–(٠٠))، ص١٠٣

منبهة للمسند إليه، وعناية به؛ لأنه الأهم ومحط الاهتمام، فولوغ الكلب في أي شيء لا يؤبه له، ولكن إذا ولغ في إناء إنسان كرمه الله -تعالى- وحرص على حفظ أسباب بقائه، وصونه عن المهالك، فهو محط عناية ورعاية، وأضاف (إناء) إلى (أحدكم) للاختصاص والتملك المطلقين عن التقيد بإنسان بعينه، تشريف للإنسان وإكرام له، ومجيئ المسند (أن يغسله) فعلا لتجدد الغسل ومزاولته شيئا فشيئا عند تكرر الحادثة، فالقيد الشرطي خصص الطهارة بالغسل سبعا لكونه مختصا بولوغ الكلب، وهذا هو الوجه الظاهر للمعنى، والوجه الآخر ينحي القيد ويلغيه، فإذا لم يلغ الكلب فلا غسل سبع مرات، فارتباط الطهارة بالغسل ارتباطا تلازميا أمرا مقررا دون تقييد بعدد معين، وهو الأصل، والنص هنا على حال بعينها فأوجب اختصاصها بما يخالف المعهود؛ ولذا عند مخالفة الأصل يبقى الأصل موجودا ولو كان غير ظاهر على سطح المعنى.

ومنها: القصد في المشي إلى الصلاة: "... أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا"[(١)] أراد -صلوات الله وسلامه عليه- تقرير أمر، فلم يرد كلامه محتملا ضدا أو يمكن أن يستنبط منه وجها آخر بل أورد الأمر ومقابله مصرحا بهما عن وعي بالنفس الإنسانية التي تتطلع إلى معرفة العلل الكوامن، فلم يلجأ إلى الرمز والمواربة، والتلميح والإيحاء بل صرح؛ ليقنع المتلقي إقناعا فكريا صادقا عبر أسلوب التقابل الذي ولد المتناقضات من رحم بعضها، فالمشي انتقال عن السعي وتحول، واستمرار لأثر الفعل مع تبدل الحال الشعورية

(١) صحيح البخاري، كتاب (الجمعة)، بَابُ (الْمَشْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ)، حديث رقم (٩٠٨)، ص١٥٤

والانفعالية التي يكون عليها الساعي إلى الصلاة، وامتلاك لفائت محبوب يمكن جبره وإتمامه، فالتصريح بالمتضادات جمع الهدوء والحكمة، ورفع من قدر الفريضة.

ثالثا: حفظ المال: دعا الإسلام إلى القصد في جميع الأمور، ومنها: الاعتدال في الملبس، وعدم المغالاة في لبس فاخر الثياب: "أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: "أَخَذَ عُمَرُ جُبَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ فِي السُّوقِ، فَأَخَذَهَا فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْتَعْ هَذِهِ تَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَالْوُفُودِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ"[1] قوله صلوات الله عليه وسلامه:"إنما هذه.." جازم بإرادة الضد، وقياس العكس: ليست هذه ثياب من له (خلاق) حظ ونصيب من الخير في الآخرة[2]، لم يأت بيانه –صلوات الله تعالى عليه وسلامه– محض صدفة أو يصدر عن غير وعي، ولكنه بيان مقصود إلى إيراده على هذه الكيفية تعريضا بالمخالف؛ لأن (إنما) أوجبت لباس الحرير لمن لا خلاق له ونفته عن غيره ممن له خلاق، وكأنه أمر ظاهر معلوم لا ينكر، برز فيه التقابل، والتضاد، والتعريض.

ومنها: رعاية مال الزوج وحفظه: "عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا

(١) صحيح البخاري، كتاب (الْعِيدَيْنِ)، بَابٌ (فِي الْعِيدَيْنِ وَالتَّجَمُّلِ فِيهِ)، حديث رقم(٩٤٨)، ص١٦١

(٢) لسان العرب. مادة (خ ل ق).

ينقص بعضهم أجر بعض شيئا."[١] وإذا أنفقت مفسدة لم يكن لها ذلك، عنيت السنة المطهرة بالمرأة، فخصصت معاملاتها المالية بالذكر، ونصت عليها؛ لقيوميتها على بيتها، وتصرفها في شئونه تصرف المالك المخير، فلم يرض لها أن تكون تابعة تقنع بمأكل ومشرب ومنكح دون فاعلية أو مشاركة في العمل الاجتماعي ومعاونة على البر والتقوى، فحثتها على الإنفاق ولكن بغير صورة الأمر إشعارا بالحرية مقيدة بعدم الإفساد حفاظا على المال الذي جعل قياما لأسرتها، والذي نيل بكد الزوج وجده، وبغير صورة النهي المشعرة بالتسلط والتحكم، ولكن بأسلوب الشرط الذي علق حدوث الجزاء (الأجر) على تحقق فعل الشرط المقيد بعدم الإفساد، والذي يلمح من ورائه المقابلة الخفية، واستحضار أضداد الفعل إذا خولف الشرط؛ لتسلب منها حق الرعاية والأجر، وهي غير ظاهرة على سطح المعنى، وهو ما جعله –صلى الله تعالى عليه وسلم– يحترس بقوله: (غير مفسدة) مستبعدا الدلالات السلبية التي قد تصاحب الإنفاق، فالمقابلة اتباعا للأصل اللغوي معارضة بالنظير المخالف، تكشف عن الأوجه المتعددة والمتباينة للموضوع الواحد، وتقدم حلولا تساعد على استقرار الأوضاع الأسرية، فالمرأة إن لم تستطع إنصاف المال ورعاية ذات يد الزوج لم تؤمر بالإنفاق منه، واحتمالية أسلوب الشرط للمعنى ومقابله يتيح الوصول إلى حل أزمات المال ومشاكله، والذي يكون سببا رئيسا في تدمير الأسرة، ولكنه صلوات ربي وسلامه عليه لم يغفل المشكلات التي تنغص الحياة الزوجية بسبب الأزمات المالية والذي قد يكون بخل الزوج سببها، فعندما استفته هند بنت عتبة في إمساك زوجها

(١) صحيح البخاري، كتاب (البيوع)، بَابُ (قَوْلِ اللهِ تَعَالى: "أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ")، حديث رقم (٢٠٦٥)، ص٣٤٣

وشحه عن نفقة الأولاد "....ثُمَّ قَالَتْ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ، فَهَلْ عَلَيَّ مِنْ حَرَجٍ أَنْ أُطْعِمَ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا؟ قَالَ لَهَا: لَا حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُطْعِمِيهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ."(١) إجابته صلوات ربي تعالى وسلامه عليه إقرار صريح بالموافقة على فعلها، وضمني لعلاج طمع النفس الإنسانية وقمع شهواتها وتطلعاتها، أي: عليك حرج إن أطعمتهم من منكر وهو الإسراف، وهو ما لا تسكن به نفس المطعَم لكثرته، وإزهاق مال المالك .

رابعا: حفظ العقل: العقل مناط التكليف، وهو الحابس للإنسان عما يذم، والراد له عن هواه، والعاصم له من التورط في الهلكة، والممسك له عن التردي في ترهات الباطل؛ لذا أوجب الشرع على الإنسان حفظه صونا للفرد والمجتمع والأمة بأسرها، فحاطه بما يحفظ عليه عقله "عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ."(٢) بيان محكم موجز موح، فهو من خطاب العام المراد به العموم، أطلق حكما عاما مفصحا بحرمة كل مسكر، ظاهر الدلالة على تحريم كل أنواع المسكرات، لا يفتقر إلى القرائن لبيان معناه، بعيد عن حيل التأويل، ولم يعين الخمر أو ينص عليه؛ لئلا يسمى بأسماء موهمة فيحلل، والبيان ظاهر يوجِّه إلى الضد، وهو أن كل شراب لم يسكر فهو حلال قياسا عكسيا(٣) .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب (الأحكام)، (بَابُ مَنْ رَأَى لِلْقَاضِي أَنْ يَحْكُمَ بِعِلْمِهِ فِي أَمْرِ النَّاسِ إِذَا لَمْ يَخَفِ الظُّنُونَ وَالتُّهَمَةَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِهِنْدٍ خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَ أَمْرٌ مَشْهُورٌ)، حديث رقم (٧١٦١)، ص١٢٢٤

(٢) صحيح البخاري، كتاب (العلم)، بَاب (لَا يَجُوزُ الْوُضُوءُ بِالنَّبِيذِ وَلَا الْمُسْكِرِ)، حديث رقم (٢٤٢)، ص٥٠

(٣) قياس العكس: تحصيل نقيض حكم معلوم ما في غيره لافتراقهما في علة الحكم. ينظر الإحكام في أصول الأحكام. علي بن محمد الآمدي، علق عليه: عبد الرازق عفيفي، ١٨٣/٣، المكتب الإسلامي.د.ت.

ومن مظاهر حفظ العقل : الابتعاد عن الجدل والخصام: "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمِ."[١] قوله –صلوات ربي تعالى وسلامه عليه– مرشد وموجه إلى أن المذكور مرغوب عنه، وأن المقابل له مراد مرغوب فيه، دون تمويه أو إبهام؛ لأن البيان النبوي صدر بـ(إن)، وأفعل التفضيل(أبغض)، فالضد يستحضر الضد ويعاقبه، فذكر من الوجهين المتقابلين الوجه الأحق بالذم (أبغض)؛ لأن فيه المفسدة، ودرأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وقيد بالجار والمجرور (إلى الله)؛ ليجتنب، فالتوتر في العلاقة بين الثنائية الضدية أكدت إمكانية تجاوز اللدد والخصومة والتسامي عنهما دون نفي وجودهما، فهما تصوير لأشكال الصراع، حيث يصارع الجدل الحق في لجة الحياة[٢].

ومنها: التنزه عن اقتناء الكلاب والتماثيل المصورة: "عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا طَلْحَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةُ تَمَاثِيلَ."[٣] لما كان لعاب الكلاب وعرقها وبولها نجسا، وكانت تنبح على كل من تراه وتروعه أحيانا، وتقذر المكان بروائحها غير المحببة، ويكثر نباحها قبيل وقت الفجر لغير علة، وعندما تأخر الوحي عن رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– وكان وعده الزيارة ولم يزره، فبحث –

(١) صحيح البخاري، كتاب (المظالم والغصب)، بَابُ (قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: "وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ")، حديث رقم (٢٤٥٧)، ص ٤٠٨

(٢) ينظر الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي.(١) البنية والرؤية.د. كمال أبو ديب، ص٧٠ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب (بدء الخلق)، بَابُ (إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)، حديث رقم (٣٢٢٥)، ص ٥٥٠

صلوات الله عليه وسلم- فوجد جروا تحت سريره فأخرجه ونضح الماء مكانه، فأتى الوحي، ولما كانت الأصنام تعبد من دون الله -تعالى-، وسببا إلى الشرك، وكانت ملجأ لتلبس الأرواح بها، ومصدرا للترويع والرعب نهي رسول الله -صلوات الله تعالى عليه وسلم- عن عبادتها وأمر بتحطيمها، بل إنه أمر السيدة (عائشة) -رضي الله تعالى عنها- أن تميط قراما كان فيه تصاوير؛ لأنه كان يعرض له في صلاته فيشوش عليه، تنزهت الملائكة أن تدخل بيوتا فيها ما هو مظنة الشرك أو النجس، ولما تقدم من المضار والمخاوف ربأت الشريعة الغراء بالمسلم أن يصطحب ما كان كذلك حفظا لدينه وعقله من الهلاوس والوساوس، فإذا كان هذا الوجه منهيا عنه فضده مباح، وعليه فإن الملائكة تدخل البيت الذي ليس به كلب ولا صورة تماثيل، فتقدم النفي(لا) مرهص بالضد (الإثبات) لا محالة، وإذا كان النفي مرفوضا فنقيضه مقبول، مخالفة لما سبق تقريره، فيثبت الحكم في المسكوت عنه على خلاف الحكم في المنطوق به قياسا للمسكوت عنه على المنطوق به المنصوص عليه[1]، فالكلام محتمل وجهين متضادين ليس أحدهما ذما أو مدحا.

خامسا: حفظ العرض: صونه عن القيل والقال، والهمز واللمز، وإيقاع الفتن: "حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: سَمِعْتُ قَيْسًا قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو مَسْعُودٍ : "أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ

(١) ينظر رسالة في أصول الفقه. أبي علي الحسن بن شهاب بن الحسن العكبريّ، تح: د.موفق بن عبد الله بن عبد القادر، ص٩٦، ط١، المكتبة المكية - مكة المكرمة١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ."[١] حفظ الإسلام عرض الإمام والمأتم من الخوض واللغو والاستهزاء، فوضع لهم دستورا، وعرف بحق الإمامة حماية للطرفين، فمن حق المأتم على الإمام أن لا ينفره ولا يضجره بطول القراءة، وقد شكا أحد المصلين إلى رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– سيدنا (معاذا) فغضب واشتد في الموعظة، ووصم معاذا بالفتنة وإضلال الناس عن الحق؛ لسبه مَن ترك الصلاة خلفه من أجل تطويله، وقد تقع الفتنة بإعجاب الإمام بقراءته، وتأخر الناس عن الصلاة وتفويتها مجانبة لتطويل الإمام؛ فلذلك اشتد –صلوات الله وسلامه– عليه في الموعظة حفاظا على أعراض المسلمين من النيل منها، وحفاظا على تضييع فرض الصلاة، فقوله:"فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ" كلام موجه، مبني على السعة، يستنبط منه مفهوم المخالفة، وهو أن من صلى وحده فليطل ما شاء؛ لافتراق الحالين في العلة، ففي الحالة الأولى: الإمام محكوم بالمأتمين (فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ...)، وفي الحالة الثانية: الإمام حرّ مخير ما لم يضر.

ومن مظاهر حفظ العرض: الحرص على النظافة الشخصية مراعاة للملائكة وجيران الصلاة: " عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ: مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ يَعْنِي الثُّومَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا."[٢] وعليه: فمن لم يأكل يقرب، استحضر الذهن استحضارا

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ (الْأَذَانِ)، باب (تَخْفِيفِ الْإِمَامِ فِي الْقِيَامِ وَإِتْمَامِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، حديث رقم (٧٠٢)، ص١٢٣

(٢) السابق نفسه، كِتَابُ (الْأَذَانِ)، باب (مَا جَاءَ فِي الثُّومِ النِّيِّ وَالْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ)، حديث رقم (٨٥٣)، ص١٤٦

طبعيا الحكم المقابل للحكم المقرر في الحديث، فما دام البيان نهيا مشروطا صادرا عن صادق تتوجه حركة الذهن توجها تلقائيا إلى أن المخالف صادق أيضا، وهو من عكس القياس(١).

ومنها: طاعة الزوج دعوة زوجها إلى الفراش: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ"(٢) فإذا أطاعت لم تلعنها الملائكة، فالسكوت عن بيان الوجه المخالف بيان له في أسلوب فني جمالي قابل لتعدد وجوه المعنى والاحتمال، وهو ما يعزى إليه كثرة الشروح على متون الحديث والحواشي، وهو معيار مائز لجودة النص الحديثي، وحاسم في انسباك ظاهره واحتباك مفاهيمه الباطنة(٣)، يقرر البيان النبوي وقوع معصية من الزوج، ووقوع لعن عليها إلى أن ترجع عن عصيانها بقيد كون الزوج (غضبان عليها)، هذا الوجه هو المعنى الظاهر لنص الحديث، وهو فاعل في مواجهة العصيان؛ فلا يليق بالهجر غير العقوبة المعنوية، والوجه الآخر المخالف فاعل في مواجهة العصيان من ناحية مقابلة؛ لأنه يساهم في تشكيل وعي الزوجين في حل المشكلات الخاصة دون تعال أو تجاهل لرغبة الطرف الآخر، وهو ما ينقل الرباط الزوجي من غلّ الأَسْر إلى آفاق الحرية النفسية والمشاركة الوجدانية

(١) عكس القياس: أن يؤخذ فيه مقابل حاصل الدليل إما بالتناقض وإما بالتضاد. ينظر مفتاح العلوم. أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، تح: حمدي محمدي قابيل، ص٤٠٥ ، ٤٣٢ المكتبة التوفيقية.د.ت.

(٢) صحيح البخاري، كتاب (بدء الخلق)، بَابُ (إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)، حديث رقم (٣٢٣٧)، ص٥٥١

(٣) ينظر في اللسانيات العربية المعاصرة دراسات ومثاقفات. د. سعد عبد العزيز مصلوح، ٢٠٤: ٢١٦، ط٢، عالم الكتب ٢٠١٥م.

والتأثير الفاعل في الطرف الآخر في زمن انتقلت فيه الثقافة من واقع بعينه إلى واقع مغاير.

ومنها حفظ أعراض الناس في غيبتهم: "عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ، فَكُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: الْقَوْمُ هَذَا مِمَّنْ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ، قَالَ: فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا فَقَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»"[(١)] عانت المجتمعات من وجود الأعين الخائنة التي تتسمع الحديث وتنقله دون علم قائله، وهي عادة تزكي العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، وتشعرهم بالخوف وعدم الاطمئنان؛ لكشف السر الذي يكره كشفه، وهتك الستر؛ ولذلك غلظت العقوبة بالحرمان من دخول الجنة، فتنكير المسند إليه (قتات) للتجهيل والإبهام والعموم، فمن ارتكب هذا الفعل كائنا من كان سيكون الحرمان جزاءه إن لم يتب، فالبنية التركيبية للحديث خبرية قارة خالية من الانفعالية، ولكنها مترددة متجددة لوجود الفعل المضارع (يدخل)، فيتجدد جزاء القتات بتجدد الفعل، فالنميمة عادة متفشية متجددة في جميع المجتمعات على اختلاف لغاتها وأجناسها، والفعل المضارع حرك الحدث في جميع الأزمنة؛ ليرهب من النميمة، وفي المقابل يستدعي التفكير المتزن القار الخالي من الانفعالية الوجه المضاد، فغير القتات الأمين على المجالس يدخل الجنة بفضل الله – تعالى- إن النص الحديثي نص منفتح يقرر ما هو موجود بالفعل نصا، ويستدعي ما هو غائب عن النص كالوجه المضاد المفهوم من السياق بالفحوى، والذي لا يمكن فصله عن النص لاحتياجه إليه احتياجا سياقيا.

---

(١) صحيح مسلم. كتاب (الإيمان)، باب (بَيَانِ غِلَظِ تَحْرِيمِ النَّمِيمَةِ)، حديث رقم (١٦٩-(٠٠))، ص٤٨

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين،،،،،،،

وبعد

فقد عالج البحث فن التوجيه معالجة علمية متخصصة دقيقة تستعصي على الهواة، وتتأبى على التلفيق والتخمين والتزويق، فالبلاغة العربية علم قرآني نشأ في حضن الإعجاز، ونما وترعرعت أغصانه في بيئته، وما كان لفن من فنونها أن يكون حلية أو زينة يمكن أن ينفصل عن الأسلوب ولا يؤثر في المعنى.

- إن مصطلح التوجيه دون وصف أو تقييد علم وسيع بسيط متشعب التخصص والمشارب، إذ تحقق وجوده في بيئات علمية متخصصة كبيئة النحويين واللغويين والمفسريين والأصوليين، ولكن البحث عالج فن التوجيه البلاغي بصفة خاصة باعتباره فنا بلاغيا أصيلا، وليس ترفا لغويا، أو رياضة قولية يختبر الأديب بتضمينه إياه نظمه قوة بيانه، وذكاء قريحته، ومقدرته على الإلغاز والتعمية على المخاطب.

- منح "ابن الأثير" التوجيه مزية خاصة عندما قرر وجوده كثيرا في الأحاديث النبوية الشريفة، وإذا كان كذلك فلا يقتصر وجوده على إثبات المهارة اللغوية، والتلبيس على المخاطب باحتمال البيان ضدين مختلفين على السوية، ولكن وجوده في السنة أضاف إليه خصوصة مائزة له، فمن خلال الدراسة الجادة والرصد والتتبع الدؤوب شديد التحصيل والتفصيل للبنى الظاهرة والباطنة تبين أن هذا الفن البديعي البلاغي هو فن القول الذي يستطيع المكلف اليقظ اللقن أن يستنبط من معانيه الباطنة أحكاما شرعية،

وأن يستنبط ويقيس، ويستخدم قواعد الأصوليين استخداما فطريا هداه إليه العقل المفكر والفطرة البيانية كمفهوم المخالفة، وقياس العكس، ولحن الخطاب ودليله، وهذا الأساس هو ما جعل "السكاكي" يردف علم البيان بعلم الاستدلال أو علم خواص تركيب الكلام، وليس من باب إقحام المنطق في دراسة علم البلاغة.

- إطلاق "ابن الأثير" الحكم بورود التوجيه كثيرا في السنة الشريفة ينحو بالتوجيه إلى تعريف "الخطيب"، وهو إيراد الكلام محتملا وجهين مختلفين مطلقا دون تقييد بالضدية أو التسوية، وهو ما يمكن تطبيقه على السنة النبوية المطهرة دون حرج، بل يمكن القول إنه سمت عام في الأدب الفني الراقي الذي يتسع للمعنى وضده، والمعنى ومخالفه، وهو ما قرره "عبد القاهر" في حديثه عن "المعنى"و"معنى المعنى"، وعليه يمكن رفع الحرج عن السنة النبوية إذا طبق رأي "ابن الأثير" وقيل إن السنة النبوية تبيانا للناس، ومع التبيان فإنها حمالة أوجه، وارفة الظلال والألوان، وهذا ما جعل العلماء يستنبطون منها معاني كثيرة مختلفة لما يؤخذ من الحديث.

- تنوعت الأساليب التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم توجيها بين النفي والإثبات، ولكن الأحاديث التي ابتدأت بالنفي تحتمل التوجيه لا محالة، لانصراف الذهن إليه عند الإطلاق، فما دام هناك نفي فهو استدعاء لنقيضه (الإثبات)، فالضد يعاقب الضد ويستدعيه ويطلبه، فالقانون الكوني أقامه الله تعالى على التضاد بين الكائنات والموجودات؛ لتتمايز الكائنات وتتنوع وتختلف.

- أرهص الأسلوب الخبري المنفي بالضد (الإثبات)، فإذا انتفي الحكم تحريما أو حظرا أو منعا فإن ضده مثبت مراد أو مباح أو حلال، وعليه

يمكن القول إن الحقائق البيانية مبنية على المتقابلات الضدية سواء أحضرت حضورا نصيا مصرحا به أم توارت في أحشاء المعنى وجنباته واستنبطها العقل الواعي.

- أسلوب الشرط من الأساليب التي أتاحت للمتكلم أن يعلق نتائج على أفعال ويربطها بها، وهذا التعليق شرع للمعاني الباطنة الاحتمالية والتعدد والتوسع والتنوع دون الاجتهاد برأي شخصي، وتحميل كاهل النص معان تنوء بكاهله وتلوي عنقه، كما حررتها من قيد الصدق الكذب.

- إذا أراد صلوات الله تعالى وسلامه عليه تقرير أمر، فلا يرد كلامه محتملا ضدين بل يأتي بالأمر ومقابله مصرحا بهما.

- الأحاديث التي أخبرت عن الجنة والنار والأمور الغيبية لا تحتمل توجيها.

- إن شيوع شاهد "بشار" - ليت عينيه سواء- وشهرته، ويمكن القول بتفرده مثالا في هذا الفن أخضعه للذاتية والانطباعية، أما تقرير "ابن الأثير" وجوده كثيرا في أحاديث رسول الله -صلوات ربي تعالى وسلامه عليه- جعل منه فنا بلاغيا موضوعيا أدبيا راقيا يسهم في إنتاج المعرفة، وإذكاء العلم.

- حافظ التوجيه على بيانه -صلوات ربي تعالى وسلامه عليه- من الترهل والتمدد والتعري والسفور المبتذل، ولا يعني هذا أن بيانه مبهم مستغلق وهو ما ينافي علة إنزال الذكر إليه، ولكنه محكم سهل مطمع وصعب ممتنع.

– يحتمل التوجيه معنيين متضادين، أحدهما: ظاهر والآخر: باطن، وهو ما يقتضي ذائقة حسنة للظاهر، وبصرا نافذا إلى ما وراء السطح الظاهر؛ لاستكشاف العلائق المكنونة المتوارية خلفه.

– ليس التوجيه فن الإلغاز والأحاجي والإغماض والتلبيس والتعمية ولكنه فن بلاغي عبر عن مناشط العقل العربي المسلم ومنجزاته الإبداعية، فالبلاغة العربية علم دين وحجاج وجدل وإقناع وإمتاع، ويتوجب هذا أن تنتخب المؤسسات البحثية المتخصصة ثلة من الباحثين المخلصين؛ لتقديم مشروع بحثي يرصد فن التوجيه في السنة النبوية المطهرة رصدا مستقصيا خدمة للعلم النبوي بصدق وإخلاص واحتساب للمثوبة والأجر.

– الإيجاز مؤسس لجميع الفنون البلاغية التي أدار عليها علماء الأدب والبلاغة مؤلفاتهم، وعمودها، فهو النواة التي انبثق من معناه التوجيه؛ ولذلك لم يرد للتوجيه ذكر صريح في مؤلفات القرون الأولى.

– لم يرد للتوجيه ذكر في مؤلفات إعجاز القرآن الكريم كـ(النكت في إعجاز القرآن) و(إعجاز القرآن) و(بيان إعجاز القرآن)؛ لأن هذه المؤلفات تعنى ببيان الإعجاز، وإثبات سماته، ومظاهره البلاغية الكلية التي تجلت فيه، دون الاعتناء بالحوادث الفردية والمناسبات والأهواء والميول الشخصية، وقد صرح "الباقلاني" بهذا في كتابه.

– تسمية "السكاكي" التوجيه بهذا الاسم راجع إلى أنه ألحق به متشابه القرآن باعتبار، أما "ابن أبي الإصبع" فسماه بـ"الإبهام" نظرا إلى قصد المتكلم عدم التمييز واحتمالية الضد؛ ولذلك أورد أمثلته وشواهده شعرا، وغالبا ما يكون الإبهام في الهجاء الملبس، فلا يصح أن يطلق على القرآن العظيم، وهنا يتبدى أدب "السكاكي" الرفيع مع الكتاب العظيم، فينتقي

مصطلحاته بوعي، ويدرج تحتها من الشواهد ما يليق بها، ويتناسب مع طبيعة موضوعها وغرضها.

– التوجيه ينافي الإبهام، فالإبهام إلباس وتعمية وتمويه، بينما التوجيه استنباط وإرشاد ولفت إلى معان آخر تستنبط من السياق والمقام.

– احتمالية الكلام لوجوه عديدة مختلفة أو متضادة يفصح عن مقدرة المنشيء البيانية، وتمكنه واقتداره؛ فلا يرد ما يخطر بباله، بل يختمر المعنى في ذهنه ويتمخض عن فرائد تروي عطش المتلقي المعنى بما يتوارى في الصفوف الخلفية البعيدة عن أيدي الناس وأعينهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

١. أنوار الربيع في أنواع البديع. السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، ط١، مكتبة العرفان بكربلاء.د.ت.

٢. الإحكام في أصول الأحكام. علي بن محمد الآمدي، علق عليه: عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي.د.ت.

٣. إعجاز القرآن. أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف ٢٠١٠م.

٤. الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني، تح: د. عبد القادر حسين، ط١، مكتبة الآداب١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٥. البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٦. البيان والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة ابن سينا ٢٠١٠م.

٧. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ابن أبي الإصبع المصري، تح: د.حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٨. التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤ م.

٩. حسن التوسل إلى صناعة الترسل. أبي الثناء شهاب الدين محمود الحلبي، طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٨هـ.

١٠. حقائق التأويل في متشابه التنزيل. السيد الشريف الرضي، شرح: محمد الرضا آل كاشف الغطاء، ط١، دار الأضواء بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١. الحلة السيرى في مدح خير الورى. ابن جابر الأندلسي، تح: علي أبو زيد، ط٢، عالم الكتب ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢. خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين أبي بكر بن حجة الحموي، الذخائر ٢٢٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠١٤م.

١٣. خزانة الأدب وغاية الأرب.ابن حجة الحموي، تح:عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال. بيروت، دار البحار. بيروت٢٠٠٤م.

١٤. دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تح: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
١٥. الرسالة. محمد بن إدريس الشافعي، تح: أحمد محمد شاكر، ط١، مكتبة الصفا١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.
١٦. رسالة في أصول الفقه. أبي علي الحسن بن شهاب بن الحسن العكبريّ، تح: د.موفق بن عبد الله بن عبد القادر، ط١، المكتبة المكية – مكة المكرمة١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٧. الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي.(١) البنية والرؤية. د. كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
١٨. شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع. عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي صفي الدين الحلي، تح: د. نسيب نشادي، ط٢، دار صادر ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
١٩. شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٢٠. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م.
٢١. صحيح البخاري.أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر ١٣١١ هـ .
٢٢. صحيح البخاري.أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. أخبار اليوم. قطاع الثقافة.د.ت.
٢٣. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تح: حسين بن عكاشة بن رمضان، ط١، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت) ١٤٤٢ هـ – ٢٠٢٠م.
٢٤. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
٢٥. علاء الدين الوداعي الكندي حياته وشعره وما بقي من ديوانه. رائد مصطفى حسن عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة١٦ يونيه ٢٠١٦م.

٢٦. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل.د.ت.
٢٧. عيار الشعر. أبي الحسن محمد بن أحمد طباطبا العلوي، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي.د.ت.
٢٨. الفتح المبين في مدح الأمين. عائشة الباعونية. تح: د. مهدي أسعد عرار، د.ط.ت.
٢٩. الفسر. شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، أبي الفتح عثمان بن جني، تح: د. رضا رجب، ط١، دار الينابيع دمشق ٢٠٠٤م.
٣٠. الفقيه والمتفقه. أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تح: أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ط٢، دار ابن الجوزي – السعودية١٤٢١ هـ.
٣١. في اللسانيات العربية المعاصرة دراسات ومثاقفات. د. سعد عبد العزيز مصلوح، ط٢، عالم الكتب ٢٠١٥م.
٣٢. كتاب الصناعتين. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٣٣. لسان العرب. ابن منظور. تح: عبدالله الكبير، ومحمد أحمد حسب، دار المعارف.د.ت.
٣٤. متشابه القرآن. د.إبراهيم الخولي، ط١، دار البصائر ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
٣٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير، تح: د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، نهضة مصر.د.ت.
٣٦. المطول في شرح تلخيص المفتاح. سعد الدين مسعود التفتازاني، صححه: عثمان افندي زاده، المكتبة الأزهرية للتراث١٣٣٠هـ .
٣٧. معيار العلم في فن المنطق. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تح: د.سليمان دنيا، دار المعارف، مصر١٩٦١م.
٣٨. المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة. د.محمد سالم محيسن، ط٢، دار الجيل بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٣٩. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تح: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ط٣، دار عطاءات العلم. الرياض – دار ابن حزم. بيروت١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م.

٤٠. مفتاح العلوم. أبي يعقوب يوسف السكاكي، تح: حمدي محمدي قابيل، المكتبة التوفيقية .د.ت.
٤١. المفردات في غريب القرآن. أبي القاسم الحسن بن محمد المشهور بالراغب الأصفهاني، تم التحقيق والإعداد والنشر بمركز الدراسات والبحوث مكتبة نزار مصطفى الباز.د.ت.
٤٢. مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر.د.ت.
٤٣. الملاحن. أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، تح: د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٢م.
٤٤. المنزع البدع في تجنيس أساليب البديع. أبي محمد القاسم السلجماسي. تح: علال الغازي، ط١، مكتبة المعارف الرباط ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.
٤٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم بن محمد بن حسن القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي.تونس ١٩٨٦م.
٤٦. الموافقات. أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله، ط١، دار ابن عفان١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
٤٧. مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص. ابن يعقوب المغربي، دار الإرشاد الإسلامي. بيروت.د.ت.
٤٨. النشر في القراءات العشر. أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري، تح: علي محمد الضباع، المكتبة العلمية.د.ت.
٤٩. نظم البديع في مدح خير شفيع. جلال الدين السيوطي، تح: الشيخ: علي محمد معوض، والشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، راجعه وقدم له: عبد الفتاح أبو سنة، ط١، دار القلم العربي بحلب ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
٥٠. النكت في إعجاز القرآن. أبي الحسن علي بن عيسى الرماني مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. أبي الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني، تح: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف١٩٧٦م.
٥١. نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٣ هـ.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٥٥٠
٢-	Abstract	٥٥١
٣-	مقدمة	٥٥٢
٤-	تمهيد : التوجيه والتعمية والإلغاز	٥٥٦
٥-	الفصل الأول: التوجيه بين علماء الأدب والبلاغة	٥٦٢
٦-	الفصل الثاني: نماذج من السنة النبوية المشرفة	٥٨٤
٧-	الخاتمة	٦٠٨
٨-	فهرس المصادر والمراجع	٦١٣
٩-	فهرس الموضوعات	٦١٧